كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

ما تفرد به تمام حسان في بيان النص القرآني

إعداد

الدكتور/ علاء دسوقي أحمد علي

أستاذ النحو والصرف والعروض المشارك في قسم اللغة العربية،
كلية الآداب والفنون، جامعة حائل،
المملكة العربية السعودية.

(العدد الأربعون)
(الإصدار الأول ـ الجزء الثالث)
(١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م)

ما تفرد به تمام حسان في بيان النص القرآني

علاء دسوقي أحمد علي
قسم النحو والصرف والعروض، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والفنون، جامعة حائل، المملكة العربية السعودية.
البريد /dr.desouky73@hotmail.com

الملخص

دار هذا البحث حول ما تفرَّد به تمام حسان في بيان النص القرآني، خاصة ما خالف فيه المفسرين أو بعضا منهم. ومن أهم النتائج: أنَّ ما تفرد به أستاذنا يعد نوعا من التفسير بالرأي المحمود القائم على الفهم العميق لمعاني ألفاظ القرآن الكريم، وقد استند في ترجيح رأيه إلى أدلة قوية، من أهمها: الدليل السياقي، والدليل اللغوي، والدليل العقلي، وأن السياق هو القرينة الكبرى في الترجيح، وقد أخذ البحث برأيه في بعض المسائل، استنادًا إلى أدلة قوية أوردها، وحجج أتى بها، وتحفظ على بعض منها، اعتمادًا على أدلة ذكرها المفسرون، أو أتى بها كاتب هذه السطور.

الكلمات المفتاحية : النص، تفرد، تمام حسان، القرآن الكريم. التفسير بالرأي

What was unique to Tamam Hassan in the statement of the Quranic text

Alaa Desouki Ahmed Ali
Department of Grammar, Morphology and Presentation - Department of Arabic Language , College of Arts and Arts , University of Hail , Kingdom of Saudi Arabia.
Email: dr.desouky73@hotmail.com/

Abstract:

This research revolved around what Tamam Hassan was unique to in explaining the Qur'an text, especially what the commentators or some of them disagreed with. Among the most important results: What was unique to our professor is a kind of interpretation by the praiseworthy opinion based on a deep understanding of the meanings of the words of the Noble Qur'an. He was based on weighting his opinion on strong evidence, the most important of which are: contextual evidence, linguistic evidence, and mental evidence, and that context is the great evidence In weighting, the research took its opinion on some issues, based on strong evidence that he mentioned, and the arguments that he made and preserved on some of them, based on the evidence mentioned by the commentators, or the writer of these lines.

Keywords: Text, Unique, Tamam Hassan, : The Noble Qur'an.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

توطئة البحث:

الحمد لله لا يخيب من دعاه، ولا يضل من التجأ إليه ورجاه، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه الطيبين الأخيار، ثم أما بعد، فهذا البحث القائم بين يديك – أيها القارئ – يوضح الآراء التي تفرد بها أستاذنا الدكتور تمام حسان في بيان النص القرآني، خاصة ما خالف فيه المفسرين جميعا أو بعضا منهم، سواء أكان ما تفرد به في مسائل لم يُسبق إليها، أم في تعليلٍ خالف فيه مَن قبله، أم في بيانٍ رجَّح من خلاله رأيا له، أم في توضيحٍ أجلى به غامضا، مع عرض حجته، وحجتهم، ومناقشة الآراء، والترجيح بينها ما أمكن.

هذا، وقد اعتنى – رحمه الله وجعل الفردوس مثواه– في كتبه وأبحاثه التي ألفها في دراسة القرآن الكريم بالجانب اللغوي ودراسة أساليبه، وكتب ما كتب وهو يغشى ساحته" متأملا بعين اللغوي وقلب الأديب ما اشتمل عليه بناء النص القرآني من مباني اللغة ومغاني الأدب"[(١)]، كما أنه قد عَدّ كتابه "خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم" استمرارا لجهوده في التعلق به، وهو يسعى إلى فهم أسلوبه " في ضوء التراث العربي، والاستعانة بما جدَّ من دراسات لغوية حديثة، والوصول إلى آراء وخواطر تتعلق بفهم النص وأغراضه ومراميه فهمًا يقترب أو يبتعد عما ساد بين

(١) البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، للدكتور تمام حسان: ٣، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م.

لم يدّع أستاذنا في دراسته" البيان في روائع القرآن" محاولة لتفسير النص القرآني تفسيرا لغويا أو أدبيا، كما لم يدَّع أنه وقف موقف المفسر،

ولا موقف الباحث في الإعجاز القرآني.

الناس من قبل"[١]. وقد تفرد فيما كتب حوله في كتابه "البيان في روائع القرآن"، و"خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم"، و"اجتهادات لغوية"[٢]، و"مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن"[٣]، و"الفكر اللغوي الجديد"[٤]، و"حصاد السنين من حقول العربية"[٥].

وقبل الدخول في البحث لا بد من الإشارة إلى نقاط مهمة، وهي:

١- كان الوازع لاختيار هذا الموضوع هو قلة الدراسات التي اعتنت بجهود الدكتور تمام حسان في دراسة النص القرآني وبيانه عامة، وما تفرد به خاصة، على الرغم من أن جهده في هذا الجانب – أعني دراسة القرآن الكريم- لا يقل عن جهده في دراسة اللغة والنحو.

٢- كان أمامي خياران في العنوان إما أن أذكر ما خالف فيه تمام حسان المفسرين أو ما تفرد به عنهم، وقد آثرت الأخير منهما؛ لأنه لم يقصد إلى المخالفة ابتداء؛ فالمفسرون عنده موضع احترام وتقدير وإجلال، يظهر ذلك من خلال ثنائه عليهم، ومحاوراته معهم محاورة علمية تستند إلى الدليل، فلم يكن غرضه المخالفة، وإنما السعي إلى الرأي الذي يعتقده، وإقامة الأدلة الكافية عليه.

(١) خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم، للدكتور تمام حسان: ٣، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ -٢٠٠٦ م.

(٢) اجتهادات لغوية، للدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

(٣) مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن، للدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.

(٤) الفكر اللغوي الجديد، للدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١١م.

(٥) حصاد السنين من حقول العربية، للدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م.

٣- المقصود بالتفرُّد في هذا البحث هو: الإتيان برأي للدكتور تمام حسان لم يَسْبِقْ إليه أحدٌ من المفسرين، كما أنني سأوسع هذه الدلالة لتضم ما تفرَّد في بيانه وتوضحيه وتعليله، وإن وافق فيه بعض المفسرين.

٤- منهج دراسة المسائل هو المنهج التحليلي، وهو قائم على البداية برأي الدكتور تمام حسان؛ لأنه عمدة البحث وعليه يدور الحديث، ثم التعريج على آراء المفسرين قبله، ومحاولة الترجيح بينها، ما أمكن، أما تسلسل هذه المسائل في الترتيب، فيبدأ بالقضية الأعم، ثم الأخص، ثم التعريج على بعض مسائل النحو.

٥- جاء في ثنايا البحث لقب أستاذنا الدكتور تمام حسان؛ لأنني لا أستطيع - احتراما وأدبا - أن أكتب اسمه مجردا، كما أنني شرُفت بالتلمذة على يديه؛ حيث كان مشرفا لي في مرحلة الدكتوراه من ٢٠٠١م حتى ٢٠٠٥م، وقد خلا عنوان البحث من هذا اللقب؛ لأنه علم بارز مشهور، ولغوي قدير غير مغمور.

٦- المتابعة لأستاذنا في بعض آرائه، لا تعني التبعية، بقدر ما تعنى أدلة قوية أوردها، وحججا سديدة أتى بها، كما أن الأخذ برأي مخالف له - اعتمادا على أدلة قوية أوردها المفسرون، أو أوردها صاحب هذا البحث- لا تعنى بحالٍ أن التلميذ يرى نفسه، فالأستاذ أستاذ، والتلميذ تلميذ، وإنما أنا بعض غرسه العلمي - رحمه الله وجعل الفردوس مثواه-.

هذا، وقد جاء هذا البحث في النقاط الآتية:

أولا: التفسير بالرأي ومستنده.

ثانيا: ما تفرد به الدكتور تمام حسان، ولم يُسبق إليه.

ثالثا: ما وافق فيه الدكتور تمام حسان بعض المفسرين، مع تفرده في البيان والتوضيح والتعليل.

رابعا: الأدلة التي اعتمد عليها الدكتور تمام حسان في ترجيح آرائه.

وأخيرا أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

أولا: التفسير بالرأي ومستنده.

يُعَدُّ التفسير بالرأي نوعا من الاجتهاد يأتي للمفسر بعد معرفته بكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي، ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك مما يحتاجه كلُّ مفسِّر(١).

وقد قسَّم العلماء التفسير بالرأي إلى قسمين: قسم مذموم غير جائز، وقسم ممدوح جائز، وهذا الأخير الذي يعنينا في هذا السياق، وقد اشترطوا له شروطا خاصة بالمفسر، من أهمها: أن يكون مُلمًّا بعلم اللغة، وعلم النحو، وعلم الصرف، والاشتقاق، وعلوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع)، وعلم القراءات، وعلم أصول الدين – أي علم الكلام– وعلم أصول الفقه، وعلم أسباب النزول، وعلم القصص، وعلم الناسخ والمنسوخ، والأحاديث المبيِّنة لتفسير المجمل والمبهم، وعلم الموهبة(٢). وكل هذه العلوم – ولله الحمد – متوفرة عند الدكتور تمام حسان؛ وآية ذلك حفظه للقرآن الكريم في سنٍّ صغيرة، ثم التحاقه بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، وجمعه بعد ذلك بين تخصص علم اللغة وتخصص النحو والصرف

(١) التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسين الذهبي: ج١/ ١٨٣، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ٢٠٠٠م.

(٢) انظر: السابق: ج١/١٨٨– ١٩١.

والعروض، بالإضافة إلى كتاباته الواسعة في اللغة العربية، والقرآن الكريم، خاصة ما خطَّه في أواخر حياته.

ويعد ما تناوله الدكتور تمام حسان– رحمه الله – في بيان النص القرآني نوعًا من التفسير بالرأي المحمود الذي يقوم على الاجتهاد في فهم النصوص القرآنية، وإدراك مقاصدها ومدلولاتها، ويعتمد على الفهم العميق لمعاني الألفاظ القرآنية[1]، وعلى الرغم من أنه لم يتناول القرآن آية آية، كما فعل الزمخشري وأبو حيان وغيرهما، إلا أنه تناول كثيرا من آياته، وتفرَّد في بيانها، والتعليل لها، مستندًا إلى أدلة قوية، وأسس متينة. وقد لفت أنظارنا إلى هذا التفرد، حتى إنه عنون بعض كتبه بـ" الفكر اللغوي الجديد"، وجاء في مقدمته ما يشير إلى هذا؛ فقد ذكر أنَّ :" هذا التراث الذي تركه الأسلاف على حسن تناوله لم يكن كافيا لإعطاء القرآن حقه من التأمل، ومن السعي إلى الغوص في الدرس، والوصول إلى ومضات من المعاني لم يصل إليها جهد السلف، وهدى الله عباده الباحثين في الجديد من التقدم العلمي أن يجدُّوا في البحث عن مطالب النص بعد أن زعم السلف أنه استوفى حقَّه من العناية، وهذا الكتاب محاولة متواضعة للبحث في هذا الاتجاه"[2]. وجاء في بعض كتبه هذا العنوان" معان قرآنية لم يذكرها المفسرون"[3].

(١) انظر: التفسير بالرأي والشبهات المثارة حوله، د. فهد بن مبارك الوهبي: ١٨، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة الخامسة، العدد ٩، ١٤٣٧ هـ.

(٢) الفكر اللغوي الجديد، للدكتور تمام حسان: ٩.

(٣) انظر: حصاد السنين من حقول العربية، للدكتور تمام حسان:١٩٦ – ٢٠٣.

ثانيا: ما تفرَّد به الدكتور تمام حسان، ولم يُسبق إليه.

هناك مسائل تفرد بها الدكتور تمام حسان، ولم يُسبق إليها، أي أن المفسرين لم ينصّوا عليها في تفاسيرهم، ومن هذه المسائل ما يأتي:

١- نبوة الرجل المؤمن من آل فرعون.

تُعَدُّ هذه المسألة من أبرز ما تفرد به أستاذنا عن المفسرين، وهي كون" مؤمن آل فرعون" نبيًّا من الله قد عزز به رسالة موسى وهارون، ورأى أن الأئمة: القرطبي، وأبا حيان، والنسفي، والشنقيطي لم يحالفهم الصواب فيما ذهبوا إليه(١)، حيث أسندوا الإرسال إلى عيسى – عليه السلام – في حين أن الآية أسندت الإرسال إلى الله – عز وجل– كما أنهم لم يذكروا لقرية" أنطاكية" سندا تاريخيا يؤيد اختيارهم لها دون سواها، ولا ما فعله أهل القرية مع الرسل من ناحية التطير أو الرجم، وما دور الرسول الثالث وجهده؟(٢).

وقد اعتمد فيما تفرد به على سياق نص الآيات؛ فقد جاء هذا الرجل من أقصى المدينة كما ذكرت سورة" يس" و" القصص"، وظهر في أكثر من موضع في سورة "غافر" عندما كان يكتم إيمانه، واستنكر على فرعون وقومه أن يقتلوا رجلا

(١) انظر: أشار الإمام القرطبي أن القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين، ثم عقد حديثا مطولا عن حبيب النجار انظر: الجامع لأحكام القرآن: ج١٧ / ٤٢٨، وانظر: ج١٧/ ٤٢٨ – ٤٣٤، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشاركه محمد رضوان عرقسوسي، وغياث الحاج أحمد، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٦م، وأشار أبو حيان إلى ما أشار إليه القرطبي، انظر: البحر المحيط: ج٧/ ٣١٥، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ -١٩٩٣ م، ولم يتعرض الشيخ الشنقيطي بالتفصيل لهذه القصة، انظر: أضواء البيان: ج٦/ ٧١٨ – ٧٢٠.

(٢) انظر: اجتهادات لغوية، للدكتور تمام حسان:٣١٧.

أن يقول: ربي الله، وأنه قد جاءهم بالبينات، كما أنَّ النصائح التي وجهها إلى قومه تدل على أنه رسول من الله، حيث جاء قوله تعالى:" وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ" غافر:٣٠، وقوله تعالى:" وَيَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ" غافر:٣٢، وقوله سبحانه:" وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ" غافر:٣٨[1].

كما اعتمد – كذلك – في ترجيح رأيه على سياق سور أخرى استرشد بها، كسورة طه، والقصص، والشعراء، والأعراف، والمؤمنون، والدخان[2].

فقوله تعالى:" وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ" يس:١٣ هي: مصر بدليل ما يأتي بعد ذلك.

*"إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ" يس: ١٣هم ثلاثة: موسى وهارون والرجل المؤمن من آل فرعون.

*"إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ" يس: ١٤. قال تعالى:" اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ" طه:٤٢.

*"فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ" يس: ١٤. قال تعالى:" وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ..."غافر:٢٨.

*" وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ" يس:٢٠. وقال تعالى:" وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ" القصص:٢٠

(١) انظر: حصاد السنين من حقول العربية:١٤٥ – ١٤٧.

(٢) انظر: اجتهادات لغوية:٣١٧ – ٣١٩.

*" فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ" يس: ١٤. قال تعالى:" فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ" الشعراء:١٦. * "قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا" يس: ١٥. قال تعالى:" فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا" المؤمنون:٤٧. * "إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ" يس: ١٥. قال تعالى:" فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ" المؤمنون:٤٨. * "قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا" يس: ١٨. قال تعالى:" وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ " الأعراف:١٣١.

* "لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ" يس: ١٨. قال تعالى:" وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ " الدخان:٢٠.

*"وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ" يس:١٨. قال تعالى:" قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ الشعراء:٢٩. وبناء على ما سبق من أدلة يرى الدكتور تمام أن المقصود من الآيات من سورة يس:١٣ – ٢٧، هو موسى وهارون والرجل المؤمن من آل فرعون.

ويمكن أن أشير إلى بعض الملحوظات في سبيل الترجيح:

أ. لا شك في أن الأدلة التي ساقها أستاذنا – رحمه الله – قوية جدا، ولكن فيها مخالفة لكل المفسرين، خاصة من ذكرهم، حيث لم يذكر أحدٌ منهم، ولو من بعيد، أن مؤمن آل فرعون هو المقصود بالرسول الثالث.

ب. تتحدث آيات سورة "يس" من: ١٣–٢٧ عن ثلاثة رسل وعن رجل مؤمن جاء من أقصى المدينة، أي أنها تتحدث عن أربعة: ثلاثة رسل ومؤمن بهم، وليس عن ثلاثة رسل فقط، فالقول بأن مؤمن آل فرعون رسولٌ قد انضمَّ إلى موسى وهارون لتبليغ كلمة الله إلى فرعون– قولٌ ليس له ما يدعمه من سياق آيات سورة "يس".

ج. جاء على لسان حبيب النجار[1] في سورة" يس" قوله:" اتبعوا المرسلين"، ولو كان رسولا، لقال:" اتبعوني واتبعوا المرسلين"، كما أن صيغة جمع المذكر السالم تدلُّ على أنهم ثلاثة، وليسوا اثنين، كما أن هذا الكلام يتعارض مع آيات أخرى، في أكثر من سورة تحدَّثت عن موسى وهارون، حيث طلب موسى من الله أن يعينه بأخيه، ولم يطلب معه رسولا آخر سواه، ولو ذكره لنصَّ عليه القرآن الكريم، حيث قال سبحانه على لسان موسى:" قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ. وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ" الشعراء: ١٢، ١٣، وقال سبحانه:" قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ " القصص: ٣٥.

د. نجَّى اللهُ مؤمنَ آل فرعون من مكر فرعون وآله بنصِّ القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى:" فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ" غافر: ٤٥، أما الرجل المؤمن في "يس" فقد استطاع قومه الوصول إليه وقتله، حتى إنَّ القرآن الكريم سجَّل مقالته بعد موته ودخول الجنة في قوله تعالى:" قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ" يس: ٢٦، ٢٧.

هـ. إسناد الإرسال إلى الله أو إلى عيسى جائز؛ لأنهم ما داموا رسلَ رسولِ الله، فهم رسلُ الله، كما ذكر المفسرون.

و. التطيرُ شأنُ كثيرٍ ممن كذَّب الرسل، وإن سُجِّل في موسى وقومه، فقد سجَّله القرآنُ الكريم في ثمود الذين تطيروا بصالح ومن معه في قوله تعالى:" قَالُوا

(١) ذكر المفسرون هذا الاسم عند حديثهم عند تفسير سورة" يس" انظر: الجامع لأحكام القرآن: ج١٧ / ٤٢٨، والبحر المحيط: ج٧/ ٣١٥ .

اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ" النمل:٤٧، كما أن الرَّجم المذكور من هؤلاء القوم قد ذكره الله على لسان غيرهم ممن كذَّب الرسل، فقد جاء على لسان قوم نوح في قوله تعالى:" قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ" الشعراء: ١١٦؛ ومن ثم فليس خاصا بهؤلاء، وليسوا هم متفردين بهذه المقولة.

ز. ذكرَ حبيبُ النجار أنه يجب على أهل المدينة "أن يتبعوا من لا يسألهم أجرا"، وهذه الصيغة لم ترد على لسان رسولين كريمين، أولهما نبي الله إبراهيم – عليه السلام – والثاني موسى – عليه السلام– لأن خليل الرحمن وجَّه الكلام لأبيه، وهذا له فضل في التربية، وكليم الرحمن وجه الكلام إلى فرعون، الذي قال له كما حكى القرآن الكريم:" أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ" الشعراء: ١٨، وعلى هذا فلو افترضنا أن ما ذكره هذا المؤمن هو مؤمن آل فرعون، لكان هناك تناقض بين نفي طلب الأجر الذي لم يرد على لسان موسى، ونفي طلب الأجر الذي أثبته هذا المؤمن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا[1]. نخلص مما سبق أن رأي المفسرين هو الأقوى، وأن المقصود بالرجل الذي جاء من أقصى المدينة في سورة" يس" إنما هو

(١) ذكر الشيخ الشعراوي هذا العبارة عند تعرضه لتفسير سورة يس، حيث ذكر أن كل رسل الله قالوا الكلمة، يعني:(وما أسألكم عليه من أجر) إلا رسولين، هما: سيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى عليهما السلام، لماذا؟ قالوا: لأن إبراهيم كانت أول دعوته لأبيه آزر، ولا يليق أنْ يطلب منه أجراً على دعوته إياه إلى الحق، كذلك سيدنا موسى أول ما دَعا دَعا فرعون الذي ربَّاه في بيته، وله فَضْل عليه، فكيف يطلب منه أجراً؟ انظر: تفسير الشعراوي، للإمام محمد متولي الشعراوي: ج٢٠/ ١٢٦٢١، ط دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ١٩٩١م.

حبيب النجار، وأنه ليس رسولا من الله، كما أن " مؤمن آل فرعون" ليس كذلك.

٢-اقتران الأولى والآخرة معا في النص القرآني [١]:

اقترن لفظ الأولى بالآخرة في سياق بعض آيات القرآن الكريم، وهي سور: القصص:٧٠، والنجم: ٢٥، والنازعات:٢٥، والليل:١٣، والضحى:٤، وأدى ذلك إلى جعل كثير من المفسرين يذهب إلى أن المقصود بالأولى في هذه الآيات هو الدنيا، وأن المقصود بالآخرة هو الدار الآخرة. ويمكن أن نفصل القول في ذلك كالآتي:

في قوله تعالى:" فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى" النازعات:٢٥، رأى أستاذنا أن المقصود بذلك أول المعصيتين" فَكَذَّبَ وَعَصَى" النازعات:٢١، والثانية هي" ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى. فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى" النازعات:٢٢-٢٤، فعاقبه الله على اقتراف الآخرة والأولى[٢]. بينما ذهب ابن كثير والزمخشري وغيرهما إلى أن المقصود من ذلك الدنيا والآخرة[٣]، وذهب الطبري ومعه بعض المفسرين إلى أن المقصود مقولتاه: الأولى منهما:" مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي" القصص: ٣٨، و الأخيرة:" أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى" النازعات:٢٤، وكان بينهما أربعون سنة كما قال ابن عباس – رضي

(١) انظر: بحثا لي بعنوان: الأولى والآخرة في القرآن الكريم: دراسة نصية:٢٦- ٢٩، للدكتور علاء دسوقي أحمد علي، مجلة كلية الآداب، جامعة بورسعيد، العدد٨ ، ٢٠١٦م.

(٢) انظر: اجتهادات لغوية: ٢١٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ج٢٤٢/١٤، تحقيق مصطفى السيد وآخرين، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ .٢٠٠٠م. وانظر: الكشاف: ج ٣٠٨/٦، وأضواء البيان: ج٣٠/٩، ٣١.

الله عنهما-(١). وما اختاره الإمام الطبري هو الأقوى – من وجهة نظر البحث- استنادًا إلى سياق نص آيات سورة القصص والنازعات؛ فقد ادعى فرعون – لعنه الله – الألوهية، ولم يكتف بذلك بل أضاف إليها بجهله ادعاء الربوبية؛ فكان عاقبة أمره خسرا، فأخذه الله ونكَّل به جزاء هاتين المقولتين.

وفي قوله تعالى:" وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى" الليل:١٣، رأى الدكتور تمام أن المقصود بالأولى قوله تعالى:" فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى" الليل:٧، وبالآخرة قوله تعالى:" فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى" الليل:١٠، أي: أنَّا نستطيع التيسير لكلتيهما(٢). وقد ذهب المفسرون إلى أن المقصود بهما الدنيا والآخرة؛ فيصير المعنى: إنَّ لنا ملك ما في الدنيا والآخرة، نعطي منهما من أردنا من خلقنا، ونحرمه من شئنا(٣).

وما ذهب إليه – رحمه الله – يتوافق مع سياق نص الآيات؛ فالتيسير للعسرى يكون لمن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، والتيسير لليسرى لمن أعطى واتقى وصدق بالحسنى، كما أنه موافق لحديث مروي عن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه – قال:" كنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم –في جنازة فقال:" ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار"، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ قال:" اعملوا، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له؛ أما من كان من أهل السعادة، فييسر

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري: ج٢٤/٨٣ . ٨٨، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.٢٠٠١م. وقد ذكر ابن جرير الطبري آراء أخرى.

(٢) انظر: اجتهادات لغوية:٢١٤.

(٣) انظر: تفسير الإمام الطبري ج٢٤/٤٧٦. وانظر: الكشاف: ج٦/٣٨٧، والبحر المحيط: ج٨/ ٤٧٨.

لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فييسر لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ:" فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى" الليل:٥، ٦، إلى قوله:" للعسرى"(١).

وفي قوله تعالى:" وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى" الضحى:٤، رأى الدكتور تمام أن المقصود: النزلة الآخرة من الوحي خيرٌ من النزلة الأولى منه(٢). وذهب الإمام الطبري إلى أن المقصود بذلك الدار الآخرة والحياة الدنيا، أي أنَّ ما لك عند الله في الآخرة خير لك من هذه الدنيا(٣)، ونقل أبو حيان في أحد قوليه أن يكون حاليْه في الدنيا قبل نزول هذه السورة وبعدها، فوعده الله – على هذا التأويل – بالنصر والظفر(٤).

وما ذكره الدكتور تمام يتوافق مع سبب نزول آيات سورة الضحى؛ حيث انقطع الوحي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم نزلت هذه الآيات، مهدِّئةً من روعه، ومطمئِنةً لقلبه، ورادَّة على من ادَّعى أن الله قد قلى رسوله(٥)، وعلى هذا فالمعنى: إن عودة نزول الوحي عليك هذه المرة خير من العودة التي سبقت، أي تكفَّل الله

(١) الجامع الصحيح، للإمام البخاري:٤٩٤٥، دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٨ هـ، وصحيح مسلم :٢٦٤٧، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي بمصر،١٩٥٥م.

(٢) انظر: اجتهادات لغوية:٢١٣، ٢١٤.

(٣) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج ٢٤/ ٤٨٧، وانظر: الكشاف: ج٣٩١/٦.

(٤) انظر: البحر المحيط: ج ٨/ ٤٨١، وانظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ج٤٩٤/٥،٤٩٣، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب، العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢ هـ. ٢٠٠١م.

(٥) انظر الأقوال الواردة في سبب نزول سورة الضحى: الدر المنثور: ج٤٨٠/١٥ .٤٨٣.

بأن لا ينقطع عنك نزول الوحي من بعد، وفي هذا بشارة له ولدينه ولأمته، من الخير الذي سيناله، و النشر لدينه، والتمكين لأمته[١].

في قوله تعالى:" فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى" النجم:٢٥، ذكر الدكتور تمام أن الأولى هي قوله تعالى: " ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى" النجم:٨، وأن الآخرة هي قوله:" وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى" النجم:١٣[٢]، وعلى هذا فالمعنى – والعلم عند الله تعالى –: ما أعظم رؤيتك لجبريل في الأولى والآخرة!!، وهذا شبيه بقولنا: لله أنت!! وعلى هذا فقوله تعالى:" فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى" النجم: ٢٥ تعنى أسلوبا تعجبيا[٣]، في حين ذهب المفسرون أن المقصود من ذلك الدنيا والآخرة، والأسلوب خبري[٤]. وما ذكره – رحمه الله – قد تفرَّد به عن كل المفسرين، وهو موافق لسياق آيات سورة النجم؛ حيث إنَّ النبي – صلى الله عليه وسلم – قد رأى جبريل – عليه السلام – على هيئته مرتين، ففي قوله تعالى:" وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى" النجم:١٣ ذكر المفسرون أن المقصود من ذلك، هو جبريل – عليه السلام –[٥]، ثم جاء بعد عدة آيات قوله تعالى:" أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى" النجم:٢٤، وقد ذكر بعض المفسرين أن المقصود بذلك الرسول الذي كان يتمنى أن يرى جبريل مرة أخرى، فرآه، فجاء قوله:" فلله الآخرة والأولى".

---

(١) أشار الشيخ الطاهر ابن عاشور إلى قريب من هذا في: التحرير والتنوير: ج٣٠/٣٩٧، وانظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة بنت عبد الرحمن: ج ١/ ٣٦– ٣٨، مكتبة الدراسات الأدبية"٢٥"، الطبعة الخامسة، دار المعارف، د.ت.

(٢) انظر: اجتهادات لغوية: ٢١٤.

(٣) انظر: الفكر اللغوي الجديد:١٣٦.

(٤) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام الطبري: ج ٢٢/٥٦، انظر: الكشاف، للزمخشري:ج٥/٦٤٤ ، وتفسير الفخر الرازي: ج ٢٨/٣٠٢ . ٣٠٣ .

(٥) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ج١٤/٢٤.

وفي قوله تعالى:" وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون " القصص:٧٠، رأى أستاذنا أن الأولى هي قوله" وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ" القصص:٦٨، وتتمثل الآخرة في قوله: " وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ" القصص:٦٩، فيكون المعنى: له الحمد خالقا وله الحمد عالما[١]، وذهب أكثر المفسرين إلى أن المقصود بالأولى والآخرة هو: الدنيا والآخرة[٢]، فيكون المعنى: أن أولياءه يحمدونه في الدنيا، كما يحمدونه في الآخرة في الجنة[٣]. ولا شك أن ما ذكره – رحمه الله– من رأي قد اعتمد فيه على سياق نص الآيتين اللتين تسبق الآية محل الشاهد في سورة القصص.

وفي قوله تعالى: " وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا" الإسراء:٧٢، رأى أستاذنا أن المعنى استنادا إلى سياق نصِّ الآيات من الإسراء:٦٦– ٧٢ ، أي: فمن حسن عمله نجا، ومن ساء عمله في أيٍّ من هاتين البيئتين أعني: بيئة البحر أو بيئة البر، وذلك بالإعراض عن شكر النعمة، فلن ينفعه الشكر للنعمة الأخرى[٤]. وهذا مما تفرد به عن باقي المفسرين؛ وخالفهم فيما ذهبوا إليه من أن المقصود بـ" هذه": الحياة الدنيا، والآخرة هي الحياة الآخرة، وظاهر النص وسياق الآيات يقف مع المفسرين[٥] ؛ وذلك لبعد المسافة بين الآيات، الآيات، حيث سنضطر إلى إرجاع اسم الإشارة " هذه" في آية: ٧٢، إلى بيئة البحر

(١) انظر: اجتهادات لغوية: ٢١٤.

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج١٨/٣٠٤

(٣) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، ج:٥/١٨٠، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩ م.

(٤) انظر: اجتهادات لغوية:٢٣٣، ٢٣٤.

(٥) انظر: التحرير والتنوير: ج١٥/ ١٧٠.

في آية:٦٧، ولفظ" الآخرة" آية:٧٢، إلى بيئة البر في آية:٦٨، وحتى لا يقع انفصام بين الآيات التي تتحدث في السياق نفسه عن يوم القيامة وعمن أخذ كتابه بيمينه، ومن كان في هذه الدنيا أع، فيصير في الآخرة أعمى وأضل سبيلا، فيأخذ كتابه بشماله، أي أن الآية موضع الشاهد قد سبقتها آية تتحدث عن يوم القيامة في قوله تعالى:" يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا" الإسراء:٧١، ٧٢.

٣- شواهد من القرآن على أن " هؤلاء" تفيد الانتقاص.

يرى الدكتور تمام أن لفظ" هؤلاء" في القرآن الكريم يدل على العزوف عن ذكر المشار إليهم لعدم الرضا عنهم. وقد أورد اثنين وثلاثين شاهدا من القرآن الكريم(١). وبعض هذه الشواهد يدل على ما قاله، نحو ما جاء في قوله تعالى:" ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ": البقرة:٨٥، وقوله تعالى:"هَأَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ" آل عمران:٦٦، وكذلك ما استشهد به في قوله تعالى: " هَأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ

(١) انظر: اجتهادات لغوية: ٣٢٦-٣٢٨، وحصاد السنين من حقول العربية:١٩٣-١٩٥. وانظر: كذلك: خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم: ٤١-٤٣. والآيات هي: البقرة: ٣١، ٨٥، وآل عمران: ٦٦، ١١٩، والنساء: ٥١، ٧٨، ١٠٩، ١٤٣، والمائدة: ٥٣، والأنعام: ٥٣، والأنعام: ٨٩، ويونس: ١٨، وهود: ١٨، ٧٨، ١٠٩، والحجر: ٦٦، ٦٨، ٧١، والنحل: ٨٩، والكهف: ١٥، والأنبياء: ٤٤، ٦٥، ٩٩، والفرقان:١٧، والشعراء: ٥٤ – ٥٥، وص: ١٥، والزمر: ٥١، والزخرف: ٨٨، والدخان: ٣٤- ٣٥، ومحمد: ٣٨، والإنسان: ٢٧، والمطففين:٣٢ – ٣٣.

يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ " آل عمران:١١٩، والإشارة هنا للتوبيخ كما ذكر الألوسي(١).

ولكن عند استقراء الآيات التي أوردها – رحمه الله – لا نجد في بعضها ما يدلُّ على الانتقاص، ومن ذلك قوله تعالى: " وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " البقرة:٣١؛ إذ ما الدليل على أن" هؤلاء" هنا تفيد الانتقاص، والمراد من الآية هو التبكيت للملائكة، مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك، وكأن المعنى اعترفوا بالعجز والقصور، وكما قال العلماء:" وإنما استنبأهم، وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت"(٢).

كما أن قوله تعالى: " مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً" النساء: ١٤٣، قد جاء في المنافقين الذين يتذبذبون بين المؤمنين والكافرين، فلا إلى هؤلاء المؤمنين يسيرون ويستقرون، ولا إلى هؤلاء الكافرين صائرون، ولا شكَّ في أن " هؤلاء" الأولى ليس فيها انتقاص، وإن كانت الثانية تحمل معناه، كما أن الذبذبة بينهما تحمله(٣).

وفي قوله تعالى:" قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ " هود: ٧٨(٤)، نجد أن هؤلاء المشار بها لبناته، سواء كنَّ بناته على الحقيقة، أو أزواجهن اللائي بمنزلة بناته، لا يراد من هذه

(١) انظر: روح المعاني، للألوسي: ٢/ ٢٥٥، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ. ومما يندرج تحت

هذا العنوان سورة: النساء:٧٨، ١٠٩، والأنعام:٥٣، ٨٩، وهود: ١٠٩، والحجر:٦٦، وص:١٥، والزخرف:٨٨، والمطففين:٣٢-٣٣.

(٢). انظر: مدارك التنزيل، للنسفي: ٧٩/١.

(٣) انظر معناها في: البحر المحيط: ٣٠٧/٣.

(٤) ومثلها في سورة الحجر: ٧١.

الإشارة الانتقاص، ولو كان الانتقاص قليلا لبنتيه، وكثرة قومه المنحرفين، فإنما هو انتقاص من ناحية العدد لا غير، وإن قصد به بناته اللاتي هن تحت أزواجهن، فلا نقص في العدد إذن، ولا شاهد في ذلك على إرادة الانتقاص(١).

وأين الانتقاص في قوله تعالى:" قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ" الحجر:٦٨؟! وأين الانتقاص في قوله تعالى: " فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا" النحل:٨٩ ، والمراد بالإشارة هنا أمة الرسول، وإن كان الاستفهام فيه تقريع وتوبيخ، كما ذكر أبو حيان(٢).

٤- المقصود بأيام الله في القرآن الكريم.

في قوله تعالى :" قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ" الجاثية:١٤، يرى الدكتور تمام أن الذين لا يرجون أيام الله لا يؤمنون بها ولا بما ورد في القرآن الكريم من الإشارة إليها؛ وقد أورد سبعين شاهدا من القرآن الكريم على المقصود بيوم الله، أو أيام الله التي وردت صراحة في صورة الجاثية، وكذلك في سورة إبراهيم في قوله تعالى:" وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ" إبراهيم:٥، وكل هذه المعاني تقريبا تتعلق بيوم القيامة، وذلك عندما ينسب اليوم إلى الله؛ إذ يتعلق هذا اليوم بمشيئة الله وقضائه، سواء تعلق هذا القضاء بأمور الدنيا أو بأمور الآخرة(٣).

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي: ١٨ / ٣٧٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت، وانظر: تفسير المنار:١٢/ ١١١.

(٢) انظر: البحر المحيط:٣ / ٦٤٤. وذكر أيضا أقوالا أخرى، كالكفار، وقيل اليهود والنصارى، وقيل كفار قريش، ولكن الناظر في سياق الآيات وآيات أخرى، يثبت لديه، أن الرسول يشهد على أمته، وأمته تشهد على الأمم السابقة.

(٣) انظر: اجتهادات لغوية: ٣٥٢- ٣٥٧.

بينما يرى المفسرون أن التذكير بأيام الله في سورة إبراهيم معناه: التذكير بنعم الله وآلائه، وقيل: بوقائعه... وأن معنى" لا يرجون أيام الله": لا يرجون ثوابه، أو لا يخافون بأسه ونقمته، وقال بعضهم: لا يخافون البعث. وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقَّتها اللّه لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز(١)، اعتمادًا منهم على سبب نزول الآية في أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – هبَّ غاضبا على عبدالله بن أبي عندما نطق عبارة مهينة للمهاجرين، أو على يهودي سمع قول الله تعالى: " مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ " الحديد:١١، فقال: احتاج رب محمد، فامتشق عمر سيفه، وحاول إيقاع العقاب باليهودي(٢).

ولا شك أن ما ذكره – رحمه الله – مستشهدا بآيات من القرآن الكريم يدخل تحت التذكير بأيام الله، وهو نوع من توسيع مجال التذكير بها، كما أن استقراء كل نصوص الذكر التي ورد فيها لفظ" يوم" يثبت أنها تدور حول يوم القيامة أو مقدمات ظهوره، نحو قوله تعالى: " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ"البقرة:٨، ونحو قوله تعالى: " فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ" الدخان:١٠(٣). ولكن مع ملاحظة أن بعض الشواهد ذُكِرَ فيها لفظ "يوم"، نحو قوله تعالى: " إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

(١) انظر: البحر المحيط: ٩ / ٤١٧. ولمعرفة المزيد حول المقصود بالأيام في السياق القرآني انظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم:١٢٢٢ – ١٢٢٨، من إصدار مجمع اللغة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ هـ. ١٩٨٨م.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٩ / ٤١٢، والكشاف:٤ / ٢٨٨.

(٣) انظر: اجتهادات لغوية: ٣٥٢– ٣٥٧، ومن ذلك على سبيل المثال ما ورد في الفاتحة:٤، والبقرة :٨، ٨٥، ٢٤٥، وآل عمران: ٩، ٣٠، ١٠٦، والمائدة: ١٠٩، ١١٩، والأنعام: ٢٢، ٧٣، والأعراف: ١٤، والتوبة: ٣، ٣٥، ٣٦، والأنفال: ٤١، وهود: ١٠٣، إبراهيم: ٥، ٤١، ٤٤، ٤٨، الحجر: ٣٧ –٣٨، والنحل: ٨٤، ١١١.

وَالْأَرْضَ" التوبة:٣٦، ومثل يوم الفرقان، في قوله تعالى: " وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" سورة الأنفال:٤١، ويوم الحج الأكبر في قوله تعالى:" وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ" التوبة:٣، وهذه "الأيام" لا ترجى عند الكفار أو المنافقين؛ لأنها تتعلق بحدث مضى وانتهى، أي أن سياق هذه الآيات لا يندرج تحت التذكير الموجَّه لهؤلاء، والله أعلم.

٥-معنى لباس التقوى: مزاولة التقوى.

في قوله تعالى: " وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ " الأعراف: ٢٦، ذهب الدكتور تمام إلى أن المعنى: ومزاولة التقوى ذلك خير، وقد اعتمد في رأيه على وجود مفارقة قائمة من إضافة اللباس إلى التقوى، مع أن التقوى لا لباس لها، ولا يشترط للتقيّ أن يلبس لباسا بعينه؛ ومن ثم يصبح الكشف عن المعنى معلقا بالبحث عن علاقة معجمية مقبولة بين اللفظين، وهذا يتضح من خلال معرفة أن لفظ " لباس " لا يطلق فقط علي الملابس كما في قوله تعالى:" يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً " الأعراف:٢٦، وقوله تعالى:" وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ" الحج:٢٣، وإنما يدلُّ – كذلك – علي مصدر" لابس، يلابس، لباسا، وملابسة "، أي خالطَ وزاولَ، وهذا هو المقصود؛ ومن ذلك قوله تعالى: " هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ " البقرة: ١٨٧، أي مخالطات لكم، وقوله تعالى:" وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسا " النبأ: ١٠، أي وقتا يجتمع فيه بعضكم مع بعض، وقوله تعالى:" فَأَذَاقَهَا اللَّه لِبَاسَ الْجُوعِ

وَالْخَــوْفِ" النحل: ١١٢، أي: معانـاة الجوع والخوف، فاللبـاس معايشـة واجتمـاع ومعاناة[١].

وقد ذكر الزمخشري أن المقصود من لباس التقوى: اللباس المواري للسوأة؛ لأن مواراة السوأة من التقوى، وقيل المراد: ما يُلبس من الدروع ونحوها[٢]. أما أبو حيان، فقد أورد معاني متعددة، سواء أكان اللباس حقيقة، وهو ما يستر العورة، أم مجازا، كالعمل الصالح والعفة والحياء، ثم عقب بقوله: والأحسن أن يُجعلَ عاما، فكل ما يحصل به الاتقاء المشروع؛ فهو من لباس التقوى[٣].

ولا شك أن ما ذكره الزمخشري وأبو حيان جاء مسايرًا لسياق نص الآية الكريمة من سورة الأعراف، أما أستاذنا فقد خرَّجها على متابعة لفظ " لباس" من خلال سياق آيات أخرى، لم يقصد بها الملابس، وإنما قصد بها المخالطة والاجتماع والمعايشة، وربما يحمل رأيه على الرأي الذي فسَّر اللباس بالعمل الصالح، كما اعتمد على الصرف من كون أن الفعل" لابس" مصدره: "لباس وملابسة"، ومادام الأمر يمكن حمله على الحقيقة، فلا داعي لحمله على المجاز، بعدًا عن المفارقة المعجمية بين لفظي" لباس" و" التقوى".

٦- شاهد يوسف ليس إلا العزيز نفسه.

في قول الله تعالى:" وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا رَأَى

(١) انظر: قرينة السياق، للدكتور: تمام حسان :٣٧٨ ، ٣٧٩ ، بحث قدم في الكتاب التذكاري للاحتفال بالعيد المئوي لكلية دار العلوم، مطبعة عبير للكتاب، ١٤١٣هـ . ١٩٩٣م، وحصاد السنين:٩٢، ٩٣.

(٢) انظر: الكشاف:ج٢/٤٣٥.

(٣) انظر: البحر المحيط:ج٤/٢٨٤.

قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ" يوسف:٢٦- ٢٩، ذكر الدكتور تمام أن الزوج لم يكن الملك؛ لأن حديث يوسف إلى الملك أتى بعد ذلك في الآيات، عندما كلمه، فقال:" إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ" يوسف:٥٤، ويرى أنَّ منصب العزيز يساوي بالمقاييس الحالية كبير الشرطة أو زير الداخلية، فكان له قدرة على استخراج النتائج من القرائن، وله قدرة على عقاب يوسف؛ ومن ثم يرجح أن الشاهد لم يكن غير العزيز نفسه، وهو زوجها، فعندما أسرع يوسف إلى الباب وفتحه، وجد سيدها لدى الباب، ولما نظر العزيز إلى دلائل الانفعال في حالتي يوسف والمرأة، سأل عن السبب، فتضاربت أمامه الأقوال، فلم يكن لديه بدٌّ من أن يتولَّى فهم الموقف بنفسه، فدار في نفسه الكلام الذي نسبته الآية إلى الشاهد، ولما تبين له الأمر، أمرَ يوسفَ بكتمان القصة، وأمرها بالاستغفار، وما كان لطفل في المهد ولا لخلق من خلق الله ليس بإنسي ولا جني ولا لحكيم أن يقول لامرأة في محضر زوجها: إنك كنت من الخاطئين، فالشاهد الذي هو من أهلها لم يكن غير زوجها[١].

وقد رأى الإمام القرطبي أن المقصود بالعزيز هو الملك، وأن الشاهد الذي هو من أهلها فيه أربعة أقوال: أحدها أنه طفل في المهد تكلَّمَ، وهذا منقول عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك، وقد ضعَّف بعضهم هذا الرأي، ورده بقوله: "من أهلها"، والثاني: أن القميص قُدَّ بما فيه من لسان الحال، ويمنعه قوله: "من أهلها"، والثالث: أنه خلْقٌ من خلق الله تعالى ليس بإنسي ولا جني، ويمنعه قوله أيضا:"

(١) انظر: اجتهادات: ٢٤٦.

من أهلها"، والرابع: أنه رجل حكيم ذو عقل يستشيره في أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها[1].

والذي عليه معظم المفسرين أنه رجل حكيم كان ابن عمٍّ لها، واتفق في الدخول في ذلك الوقت مع زوجها، ثم دار الحوار كما نقلته الآيات، وكان من أهلها، ليكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة[2]. وما ذهب إليه المفسرون أقوى مما ذهب إليه أستاذنا؛ لأن الشاهد لو كان هو زوجها، لجاء سياق الآيات" وشهد زوجها" أو" سيدها"، خاصة أنه أقبل في هذه اللحظة التي رأى فيها المراودة من زوجته ليوسف عليه السلام. أما استبعاد أن تخاطب امرأة العزيز في حضرته أنها من الخاطئين، فاحتمال أن يكون هذا من قول الشاهد، أو أن يكون من قول زوجها، بعدما أدرك بالدليل أن زوجته هي التي قامت بالمراودة.

٧- دخول أبناء يعقوب من أبواب متفرقة مخافة الإحاطة بهم أو ببعضهم.

في قوله تعالى: " وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ" يوسف: ٦٧، نجد أن يعقوب – عليه السلام – قد نهي أبناءه أن يدخلوا من باب واحد، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، ولم يُذكر لنا السببُ الذي دعاه إلى ذلك القول.

ويرى الدكتور تمام أن السبب ماثل في سياق نص الآية الكريمة التي قبلها؛ حيث نجد فيها قول يعقوب –عليه السلام – لبنيه:"لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ"

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي: ج١١/ ٣٢١ – ٣٢٢.، لا يكاد كلام أبي حيان يخرج عما ذكره القرطبي، وانظر: البحر المحيط: ج٥/ ٢٩٧.

وانظر: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي: ج١٨/ ١٢٦، ١٢٧، دار الفكر، ط١، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٢) انظر: البحر المحيط: ج٥/ ٢٩٧.

يوسف: ٦٦، ويفهم منها أنه قد تسرَّب إلى نفسه الخوف على بنيه حين سمعهم يروون له قول المشرف علي خزائن الأرض، عندما طلب إحضار أخيهم بقوله:" فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلاَ تَقْرَبُونِ" يوسف: ٦٠، ولقد توجس خيفة أن يكون في الأمر مكيدة، وأن أبناءه ربما أُحيطَ بهم أو ببعضهم، فأوصاهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، فإن أُحيط ببعضهم نجا الآخرون، وهذا على خلاف ما لو أُحيطَ بهم جميعا(١). أما قول الإمام القرطبي وأبي حيان بأنه خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرجل واحد(٢)، فأمرٌ فيه نظر، كما ذكر الدكتور تمام؛ إذ كيف بالعين أن تصيبهم، وقد خرجت بهم الحاجة إلى الطعام في كنعان، فجاءت تلتمسه من مصر بلد الوفرة والحضارة، وكيف يتسنى لمن يراهم أن يعرف أنهم أبناءٌ لأب واحد ؟! (٣).

وما ذهب إليه – رحمه الله – وهو خوف يعقوب على أبنائه أن يحاط بهم أو ببعضهم – رأيٌ له وجاهته، ويمكن أن أضيف إليه سببا آخر ذكره أبو حيان، وهو أنه أراد بافتراقهم أن يتسمَّعوا أخبار يوسف – عليه السلام – (٤)؛ لأن يعقوب – عليه السلام – أراد أن يوسِّعَ دائرة التعرف على يوسف من إخوته، أو أن يتسمَّع بعضُهم أخباره؛ فيهتدوا إليه.

٨- في قوله تعالى :" فخانتاهما".

في قوله تعالى:" وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا

(١) انظر: البيان في روائع القرآن : ٥٧١ ، وانظر: اجتهادات لغوية: ٢٤٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ج١١/ ٣٩٩، وانظر: البحر المحيط: ٥ / ٣٢٥.

(٣) انظر: البيان في روائع القرآن : ٥٧١ ، وانظر: اجتهادات لغوية: ٢٤٧.

(٤) انظر : البحر المحيط : ٥ / ٣٢٥ .

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " هود:٤٥، ٤٦. وقوله تعالى: " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ" التحريم:١٠ رأى الدكتور تمام – مستندًا على ما جاء في قوله: إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألني ما ليس لك به علم – أن المعنى المراد أنَّ نوحًا لم يكن يعلم من قوله تعالى:" فخانتاهما" حتى أخبره الله سبحانه بما ورد في سورة " هود" من المصارحات التي لم يكن لنوح علم بها(١).

وقد أجمع العلماء على أن خيانة امرأة نوح وامرأة لوط كانت في الدين؛ إذ كانتا مشركتين، وليس المراد" فخانتاهما" في فاحشة، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، وقد ذكر المفسرون صورا من خيانتهما، منها أن امرأة نوح كانت تخبر أنه مجنون، وأما امرأة لوط، فكانت تدل قومها على أضيافه. وقد ذكر الزمخشري قوله:" ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور، لأنه سمجٌ في الطباع، نقيصةٌ عند كل أحد، بخلاف الكفر، فإن الكفار لا يستسمجونه، بل يستحسنونه، ويسمُّونه حقا"(٢). وقد جاء عن ابن عباس قوله:" لم تزن امرأة نبي قط، ولا ابتلي في نسائه بالزنا""(٣). وما ذهب إليه المفسرون هنا هو الراجح، اعتمادا على الإجماع من ناحية، وعلى المنقول عن ابن عباس من ناحية أخرى، كما أن فيه صيانة لأعراض الأنبياء.

٩- **واو البشرى في القرآن الكريم**. اتخذ الدكتور تمام مصطلحا جديدا لواو زائدة – كما يرى – وردت في سياق الدلالة على البشرى في موقف بلغ فيه اليأس غايته،

(١) انظر: الفكر اللغوي الجديد:٢١.

(٢) انظر: الكشاف: ج٦/ ١٦٤، ١٦٥.

(٣) انظر: البحر المحيط: ج٨/ ٢٨٩.

وأطلق عليها مصطلح" واو البشرى"، ورأى أن هذه الواو تأتي في الغالب في سياق حلِّ قضية شخصية تبلغ مستوى الأزمة، كما تأتي بعد" فلما" أو "حتى إذا". ومما ورد في ذلك قوله تعالى: "فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ" الصافات: ١٠٣ -١٠٧، وقوله تعالى: "فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ" يوسف:١٥، وقول سبحانه:" وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ" الزمر: ٧٣ ، وقوله جل شأنه :"فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ" هود:٧٤ [١].

وقد اتخذ – رحمه الله – مصطلح" واو البشرى" من آية هود:٧٤، كما هو واضح، كما أنه قد رأى في آية الزمر:٧٣ أن الواو في بداية الآية في قوله تعالى:" وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ" الزمر:٧٤ هي واو البشرى[٢]. ولا مشاحة في الاصطلاح، ولكن وقع خلاف بين النحويين في هذه الواو الواقعة في صدر الجملة في " وناديناه"، "وأوحينا"، " وفتحت"، " وجاءته"، حيث يقدرها الكوفيون على أنها جواب للشرط السابق عليها، وأن الواو زائدة، بينما يرى البصريون أن الجواب محذوفٌ يُقدَّر حسب السياق، وليست الواو هنا زائدة، بل هي حالية أو عاطفة[٣].

قال سيبويه:" وسألتُ الخليل عن قوله جلَّ ذكره: "حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا" أين جوابها؟ وعن قوله جل وعلا: " وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ

(١) انظر: حصاد السنين من حقول العربية:١٨١-١٨٣.

(٢) انظر: السابق:١٨٢.

(٣) انظر: البحر المحيط: ج٥/ ٢٨٧- ٢٨٨، ج ٧/ ٣٥٥.

الْعَذَابَ" البقرة:١٦٥، "وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ" الأنعام: ٢٧ ،" فقال: إنَّ العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجوابَ في كلامهم، لعلم المخبر لأيِّ شيء وُضِعَ هذا الكلام"(١). أي أن الجواب محذوفٌ مقدَّر، وقوله: "وفتحت أبوابها" كلام معطوف على ما قبله، كما عطف عليه ما بعده، ولو كان جوابا، لكان مقتضاه أنها لا تفتح إلا عند مجيئهم، كالحال في أهل النار، وليس كذلك، ألا ترى قوله تعالى:" وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ" ص: ٤٩، ٥٠، فانتصاب "مفتحة" إنما هو على الحال، والحال قيدٌ فيما قبلها.

والدليل على ذلك ما جاء في الحديث الشريف أنَّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم – أوَّلُ من يفتح الجنة ويقرع بابَها(٢)، وهذا يدلُّ على أن الداخلين تالون له وبعده، فيجدونها مفتوحة الأبواب، وإذا لم يتوقف فتح أبوابها على مجيئهم، فليس قوله:" وفتحت أبوابها" جوابا، لو فرضنا أن لا يعتد بالواو كما يقول أهل الكوفة، فالجواب – والله أعلم – مقدَّرٌ بعدُ، يفسِّره المعنى، كأنه قد قيل: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: سلام عليكم طبيتم فادخلوها خالدين أنسوا وأمنوا، أو ما يرجع إلى هذا المعنى ويحرزه (٣).

(١) الكتاب، لسيبويه: ج٣/ ١٠٣، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨م.

(٢) انظر: صحيح الإمام مسلم رقم"٣٢٢" من كتاب الإيمان، تحقيق وتعليق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي بمصر،١٩٥٥ م.

(٣) انظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، للإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي: ج٢/ ٩٩٦، ٩٩٧، تحقيق الدكتور سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

١٠-إفادة"إذ" الاستفتاح والتوكيد.

في قوله تعالى:" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً " البقرة:٣٠، يرى الدكتور تمام أن "إذ" في هذا الموضع وظيفتها الاستفتاح والتوكيد[١]، ومعناها: لقد، وأنه لا حاجة بنا إلى تقدير فعل محذوف وجوبا تقديره" اذكروا" ليتعلق به" إذ" ؛ لأن ما دخلت عليه لا يقع موقع التذكر، كما أن المخاطبين لم يكونوا شهودا، ولا رأوا هذه الأحداث حتى يطالبوا بالتذكر[٢].

ولا شك أن القول بتعلق "إذ" بفعل" اذكر " أو" قالوا" كما في آية البقرة:٣٠[٣] هذا القول له ما يؤيده من آيات كريمة صُرِّحَ فيها بالفعل" اذكر " في نحو قوله تعالى:" وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ" الأحقاف:٢١، ونحو قوله تعالى:" وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ" ص:.١٧

١١-نقل " هل" إلى معنى التعجب.

يرى الدكتور تمام أن النقل إجراء أسلوبي، ولا تحكمه قاعدة، ولا يلغي اللفظ المنقول العودة إلى اللفظ الآخر الذي حلَّ اللفظُ المنقولُ محلَّه[٤]. وقد ذكر شواهد قرآنية عدَّها من النقل، خالف فيها النحاة والمفسرين، ومن ذلك قوله تعالى:" هَلْ

(١) هناك مواضع أخرى ذكرها ومنها: البقرة:٩٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، والأنعام:٧٤، وإبراهيم:٧، والإسراء:٦١.

(٢) انظر: البيان في روائع القرآن:٣٥.

(٣) انظر: الكشاف: ج١/٢٥١.

(٤) انظر: الفكر اللغوي الجديد:١٤٧. وانظر: إلى المقصود بالنقل بصورة عامة عند الدكتور تمام في البيان:١٠ -١٢، و٣٩ – ٥٥.

أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا" الإنسان:١، حيث جعل "هل" هنا منقولة إلى معنى التعجب(١).

وقد اتفق المفسرون هنا على أن " هل" بمعنى" قد"؛ لأن الأصل: أهل؟ فكأن الهمزة حذفت، واجتزئ بها عن الاستفهام، والمعنى: أقد أتى؟ أي: قد أتى(٢)، فهي -كما يقول الطاهر بن عاشور - :" استفهام تقريري، والاستفهام من أقسام الخطاب، وهو هنا موجَّه إلى غير معين، ومستعمل في تحقيق الأمر المقرَّر به على طريق الكناية؛ لأن الاستفهام طلب الفهم، والتقرير يقتضي حصول العلم بما تقرر به، وذلك إيماء إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالوحدانية في الربوبية إبطالا لإشراك المشركين"(٣).

١٢-المصادر المنصوبة.

في قوله تعالى: " إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ " الذاريات:٢٥، رأى الدكتور تمام أن" سلاما" مصدر منصوب على معنى الإنشاء، وقد رد على كلام النحاة بأن المعنى لو قدرناه وفقا لكلامهم سينقلب رأسا على عقب، فيتحول إلى الخبر بعد أن كان للإنشاء، ولو كان خبرا لارتفع المصدر الأول كما ارتفع المصدر

(١) انظر: خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم: ٥٥، ٨٨، ٨٩، كما تحدث عن نقل "إلَّا" لتدل على الاستدراك في سورة طه:١-٣،
والليل:١٩ – ٢٠، والانشقاق: ٢٥، و عن نقل" إذ" إلى معنى أداة استئناف في سورة الأعراف:١٧٢، وإبراهيم: ٧، والحجر: ٢٨،
كما ذكر نقل (لو) إلى معنى النفي في سورة الرعد: ٣١ انظر: خواطر من تأمل لغة القرآن:٥٥ – ٥٦. وقد تناول هذا الموضوع –
كذلك – تحت باب المعاقبة في كتابه" اجتهادات لغوية" ٢٩٧-٢٩٨.

(٢) انظر: البحر المحيط: ج٨/ ٣٨٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور:ج٢٩/ ٣٧١، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

الثاني في الآية، وبهذا ننجو من تحريف مقاصد الأساليب[1]. أما النحاة هنا فيقدرون فعلا: نسلِّم سلاما، فهو مصدرٌ سادٌّ مسدَّ الفعل مستغنى به عنه، وأصله: نسلِّم عليكم سلاما[2]، كما رأوا أن المصدر المرفوع" سلام" معدول به إلى الرفع على الابتداء، وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام؛ ولا شك أن إبراهيم – عليه السلام – قد ردَّ التحية بخير منها؛ إذ في تحيته معنى الثبوت واللزوم والدوام؛ لأنها مصدر مرفوع، وفي تحيتهم التجدد والسرعة؛ لأن المعنى الفعلي فيها جليٌّ ، والأصل في هذا المعنى أن يؤدى بالفعل؛ لأنها في موضع دعاء والفعل أولى به، كما أن الموقف يقتضيها[3].

ولا شك أن ما ذكره – رحمه الله–من عدَّها من باب الإنشاء، إنما جاء هربا من نظرية العامل النحوي، وليس معنى هذا أنه ينكر القول بالحذف جملة، ولكن إذا قام دليل على الحذف، فلا مناص معه من تقدير المحذوف، وإلا تعثر الفهم([4]).

ثالثا: ما وافق فيه الدكتور تمام حسان بعض المفسرين، مع تفرده في التوضيح والبيان والتعليل.

١-أكذوبة الغرانيق يدحضها النص القرآني.

أورد كثير من المفسرين قصة الغرانيق، وملخصها أن النبي –صلى الله عليه وسلم – قرأ سورة النجم بمكة، فلما بلغ قوله تعالى:" أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ

(١) انظر: البيان في روائع القرآن:٢٠١– ٢٠٢. انظر: أمثلة وشواهد أخرى ذكرها في النساء:١٢٢، والتوبة:١١١، ويونس:٤، ٢٣،
والنحل:٣٨، ويوسف:٧٩، ومريم:٣٤، ولقمان:٩، والزمر: ٢٠، والأحقاف: ١٦، ومحمد:٤.

(٢) انظر: الكشاف: ج٥/٦١٥.

(٣) انظر: السابق الصفحة نفسها.

(٤) انظر: البيان في روائع القرآن:٢٠٤ – ٢٠٧.

الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى" النجم:١٩-٢٠، ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فلما بلغ آخر السورة سجد، وسجد معه المشركون والمسلمون، وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، وشاع في الناس أن أهل مكة أسلموا بسبب سجودهم مع النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى رجع المهاجرون من الحبشة ظنًّا منهم أن قومهم أسلموا، ووجدوا قومهم على كفرهم(١).

وقد تناول الدكتور تمام هذه القصة ببحث مستقل، جعل عنوانه" أكذوبة الغرانيق يدحضها النص القرآني"(٢)، وكشف فيه عن وجه الصواب، مستعينًا بقراءة متأنية لسياق آيات سورة الحج: ٤٢-٥٥، وقراءة أخرى لسورة النجم:١٩-٢٣، كما استعان بآيات من القرآن الكريم من خارج سورتي الحج والنجم تبطل هذه القصة.

ويمكن أن نلخص وجهة نظره في النقاط الآتية:

أ- يشتمل القرآن الكريم على آيات تدلُّ على أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يتمنى أن يهدي الله قومه إلى الإيمان، وقد تحمَّل الأذى في سبيل ذلك، وقد أشار القرآن الكريم وتدرَّج معه من الإشارة إلى هذه الأمنية في قوله تعالى:" إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ" القصص:٥٦" إلى النصح بعدم تجاوز الدعوة إلى ما هو إجبار" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" البقرة:٢٥٦، ثم الاستفهام الناهي" أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" يونس:٩٩، ثم إلى النهي الصريح عن الحزن عليهم، وقد أعرضوا عنه" وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ" الحجر: ٨٨، وكذلك " فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ" فاطر:٨، ثم إلى الإنكار المشوب اللوم في قوله:" فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ

(١) انظر: أضواء البيان: ج٥/ ٧٩٤.

(٢) انظر: مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن الكريم:٤٤٣- ٤٥٤.

لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا" الكهف:٦، وهذا معناه أن النبي كان يتمنى هداية قومه.

أما القول بأن التمني بمعنى التلاوة، اعتمادا على شاهد وحيد، وهو قول حسان بن ثابت في عثمان بن عفان:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادرِ[١]

فقد ردّه الدكتور تمام؛ لأن الأصل في الألفاظ أن تدلَّ على مدلولاتها بالمعنى الأصلي، وألا يصرفها عن هذا المعنى الحقيقي إلا أن توجد قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى، وهذه القرينة مظنتها بيئة الكلمة في النص، وليست في بيت شعري واحد.

ب. أما عند تناوله لسياق آيات سورة الحج: ٤٢- ٥٥، فقد أثنى على أبي حيان الذي تنبه إلى اجتماع النفي والجر على النكرة، مما يفيد العموم في قوله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " الحج:٥٢، ورأى أن هذا عامٌّ في الأنبياء[٢].

ثم ركَّز الدكتور تمام على حديث الآيات التي تتكلم عن الآتي: ألا يعجب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من تكذيب قومه له؛ فقد كذبت الأقوام السابقة رسلهم، ولقد أهلك الله المكذِّبين، وما أكثر ما دمَّر من القرى المكذبة. وكان ينبغي أن يعلموا بأمر هذه القرى، وقد ساروا في الأرض بلا قلوب تعقل، ولا

(١) البيت من الطويل، وهو لحسان بن ثابت في البحر المحيط: ج٦/ ٣٥٣، وليس في ديوانه.
(٢) انظر: البحر المحيط:ج٦/٣٥٢.

آذان تسمع، وهم مع ذلك يستعجلون بالعذاب، حتى إنَّ يوما عند ربك يساوى ألف سنة، وسيأتيهم العذاب، فلن يخلف الله وعده. وقد أملى الله لكثير من القرى، ثم أخذها، ولن يكون هؤلاء بدعا من المشركين. بصِّرْهُمْ برسالتك، فأنت نذير مبين، فمن آمن نجا، ومن كفر وعاند، فمصيره إلى النار. ولكن لا تأس عليهم، فذلك شأن الناس من قبلك مع أنبيائهم، كانوا إذا تمنى الرسول هداية قومه، ألقى الشيطان الشك في قلوب قومه، فيبطل الله كيد الشيطان، بالإبقاء على الدعوة والإيمان بها في قلوب البعض ممن أوتي العلم بصدق الدعوة. ذلك بأن الله يحوِّل الشك في قلوب مرضى القلوب إلى فتنة تحول دون إيمانهم، ويهدي الذين أوتوا العلم إلى أن الرسالة هي الحق، فيؤمنوا وتخضع قلوبهم. وسيظل هؤلاء الكافرون يجادلون حتى قيام الساعة أو حتى وقوع العذاب بهم [1].

ج- كما اتجه – رحمه الله – لدحض فرية الغرانيق كذلك إلى سورة النجم: ١٩-٢٣، ورأى أن نصَّ الآية لو جاء على ما نسبوه من هذه الفرية، لكان كالآتي: أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى. تلك هي الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لترتجى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس. ولقد جاءهم من ربهم الهدى". ثم تساءل: كيف يستقيم هذا الكلام بهذه الصورة، أم كيف تُرتجى شفاعتهن، وهنَّ لسْن إلا أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان؟! وكيف للوليد بن المغيرة أن يكون بين الساجدين، وقد سمع الآيات تصفه بالبخل في قوله:" أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى. وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى" النجم: ٣٣، ٣٤، أتُرى يسجد بعد هذا أم يغلظ في القول؟!

(١) انظر: مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن الكريم:٤٥١-٤٥٢.

أما المفسرون فقد تعدد مناحيهم في تناول هذه الفرية بما يأتي:

أ- منهم من رواها، ولم يعقِّب عليها، فكأنه يقبلها، كما هي عند الواحدي"[1]، والنحاس[2].

ب-ومنهم من طعن في القصة إما من حيث صحة الوجه الذي رُويت به، كابن كثير[3]، وإما من حيث منافاتها لكافة الاحتمالات، كالنسفي[4]، وانتهى كلاهما إلى قبول أن يكون الشيطان هو الذي نطق بذكر الغرانيق.

ج- ومنهم من رفض الأحاديث المروية في هذا الصدد -كالقرطبي- مشيرا إلى ما لاحظه غيره من أن هذا الحديث لم يدخله البخاري ولا مسلم ولا ذكره مصنف مشهور[5].

د- ومنهم – كأبي حيان – من رفض القصة كلها مستعينا بنص الآية في سورة الحج: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" الحج: ٥٢؛

(١) انظر: أسباب النزول، لأبي الحسن الواحدي النيسابوري:٣٠٩، ٣١٠، تخريج وتدقيق عصام عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

(٢) انظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس:٧٦٦، تحقيق د. يحيى مراد، د.ط، د.ت.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ج٨٣/١٠-٨٧، تحقيق مصطفى السيد ومحمد السيد رشاد وآخرين، مؤسسة قرطبة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

(٤) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات النسفي:ج٢/ ٤٤٨، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ج١٤/ ٤٢٧.

إذ ليس فيها إسناد شيء إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإنما تضمنت حال من كان قبله من الرسل والأنبياء إذا تمنوا[1].

وبناء على ما سبق عرضه وبيانه: فإن ما ذهب إليه أستاذنا لدحض هذه الفرية قد استند فيه على قراءة واعية لسياق آيات من القرآن الكريم، وسياق آيات سورة الحج، وسورة النجم، وهذا – لعمري – دليل قوي في الرد والبيان، والقوة والبرهان.

٢- المقصود بالسبع المثاني.

في قوله تعالى:" وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ"الحجر:٨٧، وقوله تعالى: " اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ" الزمر:٢٣، ذهب الدكتور تمام إلى أن المثاني في القرآن الكريم معناه أن تكون بين زوجين من المفاهيم لهما علاقة خاصة إيجابية أو سلبية، ومن ذلك: الإنس والجن، السماء والأرض، الإيمان والكفر، الطاعة والمعصية، الخير والشر، الجنة والنار، الدنيا والآخرة...وقد استدل على ذلك ببعض الآيات التي جمعت هذه الثنائيات، مثل سورة الأنعام:١٢٨، الإسراء:٤٤، المدثر:٣٨ – ٤٠[2]. أما السبع المثاني في سورة الفاتحة فالمقصود بها: مثنوية بين الألوهية والربوبية تكمن في لفظ الله الدال على ذلك، ثم مثنوية بين الرحمن والرحيم، ومثنوية بين مالك يوم الدين من جهة ورب العالمين من جهة أخرى، ورابعة بين إياك نعبد وإياك نستعين. وقد ذكر في نهايته أن هذا اجتهاد منه، وأنه يرجو أن يكون صائبا[3].

(١) انظر: البحر المحيط: ج٦/٣٥٢.

(٢) انظر: خواطر من تأمل لغة القرآن:٨١.

(٣) انظر: خواطر:٨١.

أما المفسرون فيمكن أن نعرض لرأيهم في النقاط الآتية:

أولها: يرى أن المقصود بالسبع المثاني هو فاتحة الكتاب التي تشتمل على سبع آيات، ويسكت عما عطف على السبع وهو القرآن العظيم، وهذا ما رآه أبو هريرة – رضي الله عنه – ونقله عنه النسفي[١].

ثانيها: يرى الجمع بين العدد والمعدود، فيقرر أن المقصود هو السبع الطوال، وهي: البقرة، آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معا؛ لأنه ليس بينهما تسمية، وهذا قول ابن عباس، وقد ذكره القرطبي في تفسيره[٢].

ثالثها: ذهب إلى أن يجعل القرآن الكريم كله مثاني، ويسكت عن دلالة العدد سبعة، وهذا ما ذكره القرطبي – أيضا – [٣].

رابعها: يشير إلى ما يتناوله القرآن الكريم من أقسام، ويقصد به أغراض النص القرآني، من أمر ونهي، وتبشير وإنذار... وبهذا يشير إلى القرآن الكريم، دون العدد سبعة، وهذا ما ذكره النسفي في تفسيره[٤].

خامسها: يرى النسفي – كذلك – أن المثاني مأخوذ من التثنية، وهي التكرار، وأن الفاتحة تتصل بالتكرار من جهتين: أنها تقرأ في كل صلاة، وأنها تشتمل على تكرار ما يفيد الثناء على الله[٥].

(١) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ج٢/ ١٩٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠ / ٥٤.
(٣) انظر: السابق: ١٠ / ٥٥.
(٤) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ج٢/ ١٩٨.
(٥) انظر: السابق: ج٢/ ١٩٨.

سادسها: وهو ما ذهب إليه أبو حيان من أن المثاني جمع مثناة، والمثنى من كل شيء يثنى، أي يجعل اثنين، من قولك: تثنيت الشيء تثنيا، أي عطفته، وضممت إليه آخر. فالسبع المثاني معناها سبعة أشياء من جنس ما يُثنَّى[1].

وبناء على ما سبق يتضح أن ما ذهب إليه الدكتور تمام – رحمه الله – يقترب نوعًا ما من النقطة الرابعة التي ذكرها النسفي، كما نلحظ إفادته (نوع إفادة) من كلام من سبقه من المفسرين، وإن كان قد تفرد في بيان المقصود بالسبع المثاني في سورة الفاتحة.

٣- المقصود بدابة الأرض.

في قوله تعالى:" وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ" النمل:٨٢، رأى أستاذنا أن معنى الآية الكريمة: إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة الأرض تجرحهم وتصيبهم بالكلوم والجروح[2]، واستند في ذلك على ما ورد من إشارات في النص القرآني على إرسال الآيات وما تفعله بضحاياها، ومن ذلك ما ورد في فرعون وقومه في نحو قوله تعالى: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ" الأعراف:١٣٣، فالطوفان يغرق المحاصيل، والجراد يأكلها، والحشرات المذكورة تنشر الجراثيم وعدوى الأمراض. ومما استدل به كذلك قوله تعالى:" فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ " سبأ:١٤، وهي نوع من النمل الأبيض. ولا شك أن ما ذكره جاء استنادا إلى إحدى القراءتين

(١) انظر: البحر المحيط: ج٥/ ٤٥٢.

(٢) انظر: حصاد السنين:٢١٨، ٢١٩.

في الآية الكريمة، فإما أن يكون اللفظ من الكلام، أو تكون من الكَلْم، أي الجرح، وكلتا القراءتين موجودة، فـ" تُكَلِّمُهُمْ" بضم التاء وتشديد اللام المكسورة- من الكلام- قراءة الجمهور، يدل عليه قراءة أبيّ" تُنَبِّئُهم". وقال السُّدِّي: تُكلِّمُهم ببطلان سائر الأديان سوى الإسلام. وقيل: تكلمهم بما يسوءهم. وقيل: تكلِّمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه عن قرب وبعد" أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ" أي بخروجي؛ لأن خروجها من الآيات، وقرا أبو زرعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء:" تَكْلِمُهُم" بفتح التاء وتخفيف اللام من الكَلْم، وهو الجرح قال عكرمة: أي تَسِمُهم. وقال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس عن هذه الآية" تُكَلِّمُهُمْ" أو" تكْلِمُهُمْ"؟ فقال: هي والله تُكَلِّمُهُمْ وتَكْلِمُهُمْ، تكلِّمُ المؤمن وتَكْلِمُ الكافر والفاجر أي تجرحه[1]. وقال أبو حاتم:" تُكَلِّمُهم" كما تقول تُجَرِّحُهُم، يذهب إلى أنه تكثير من" تَكْلِمُهُم"[2]. يتضح لنا مما سبق أن القراءات القرآنية تتعاضد ولا تتعارض.

٤- لفظ" رب" الوارد في سورة يوسف.

أوضح الدكتور تمام المقصود بلفظ "رب" الوارد في سورة يوسف، من خلال استقراء آياتها، وهو كالآتي[3]:

(١) انظر: معجم القراءات، للدكتور عبد اللطيف الخطيب، ج٦/ ٥٥٨، دمشق، دار سعد الدين، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣ / ٢٣٧، ٢٣٨، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م.

(٣) انظر: مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن": ٢٥٥ - ٢٦٢، وحصاد السنين من حقول العربية:١٢٦ -١٣٤.

أ-الله عز وجل، وذلك نحو قوله تعالى:" وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ" يوسف:٦، وقوله تعالى:" قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ" يوسف: ٣٣[١].

ب-الملك الهكسوسي، وذلك في قوله تعالى:" وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ" يوسف:٤٢.

ج-يراد به العزيز نفسه. وهو من قام على تربيته، وذلك واضح في قوله تعالى:" إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ" يوسف: ٢٣.

والموضعان الأولان لا إشكال فيهما، أما الموضع الثالث، ففيه خلاف؛ فقد رجَّح أبو حيان عود الضمير على اللّه – تعالى – الذي في سياق الآية نفسها " قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ "، أي: إن اللّه ربي أحسن مثواي؛ إذ نجاني من الجب، وأقامني في أحسن مقام، كما استبعد ما ذكره غيره من عود الضمير على سيده العزيز؛ إذ لا يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه، ولا بمعنى السيد؛ لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكا له[٢]. أما مجاهد والسّدي وابن إسحاق فرأوا أن المراد بربه: سيده العزيز نفسه، والمعنى عندهم: إن هذا سيدي الذي قد أكرم مثواي وائتمنني، فلا يصلح لي أن أخونه، وعلى هذا القول– وقد جرى عليه الجمهور – يكون الضمير في" إنَّه" ما يسمونه ضمير الشأن، أي: إن الشأن الذي أنا فيه هو أن سيدي المالك لرقبتي قد أحسن معاملتي في إقامتي عندكم وأوصاكم

(١) وكذلك سورة يوسف:٩٨، ١٠٠.

(٢) انظر: البحر المحيط: ج٥/ ٢٩٤.

بإكرام مثواي، فلن أجزيه على إحسانه بشرِّ الإساءة، وهو خيانته في أهله[1]. ولا شك أن ما ذكره الدكتور تمام وجيه ومقبول، وهو موافق للجمهور من المفسرين.

٥- المقصود ببرهان ربه.

في قوله تعالى:" وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ" يوسف:٢٤؛ ذهب الدكتور تمام إلى أن المقصود بـ "برهان ربه" هو رؤية العزيز خلف الباب عندما أقبلَ، ورأى مراودة امرأته ليوسف، والمعنى: أنَّ يوسف كاد يضعف، لولا أن رآى صورة ربه العزيز خارج الباب[2].

وقد اختلف المفسرون في المقصود ببرهان ربه، فهو عند بعضهم ما رآه يوسف – عليه السلام – في سريرة نفسه من النبوة والعلم والدين والمراقبة لله، وبعضهم ذهب إلى أنه رأى صورة أبيه متمثلة في سقف البيت، أو صورة سيده العزيز في الجدار أو خلفه، أو صورة ملك يعظه بآيات من القرآن الكريم. ولا شك أن هذه الصور التي زعم بعضهم أنه رآها – كما ذكر الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – لا يدلُّ عليها دليلٌ من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع، ولم يُرو في خبر مرفوع عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في الصحاح ولا فيما دونها[3]. وقد ذهب أبو حيان إلى أن المقصود ببرهان ربه هو ما آتاه الله من

(١) انظر: تفسير المنار، للإمام محمد رشيد رضا: ١٢/ ٢٢٩. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م. وقد ذكر الطاهر بن عاشور – رحمه الله – الاحتمالين السابقين، ولم يرجح أيًّا منهما فقال:" ويجوز في الضمير أن يعود إلى اسم الجلالة، ويكون ربي بمعنى خالقي، ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام، وهو زوجها، فيكون ربي بمعنى سيدي ومالكي، وفي هذا إيجاز وتوجيه بليغ.

(٢) انظر: مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن:٢٥٦.

(٣) انظر: تفسير المنار، للإمام محمد رشيد رضا:١٢ / ٢٣٠.

العلم الدال على تحريم ما حرمه الله[١]، وقد ذهب الشيخ محمد رشيد رضا إلى هذا الرأي، وإن كان قد وسَّع دائرة البرهان من النبوة والعلم والدين والمراقبة لله[٢]. وهذا ما أميل إليه، لقوة الدليل، وإثبات كمال العصمة لنبي الله يوسف – عليه السلام – وأنَّ الوازع للترك هو مراقبته لله وإيمانه به، وليس رؤية العزيز.

٦- تأويل قوله:" وألقينا على كرسيه جسدا".

في قوله تعالى:" وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ" ص:٣٤، ٣٥، رأى أستاذنا أن المعنى: أنا ألقينا جسد سليمان على كرسي، وقد أصابته غيبوبة، ثم عاد بعدها إلى رشده، وسأل الله نوعا من الملك لا ينبغي لأحد من بعده، فأجابه إلى ما طلب[٣]. وقد عدَّ هذا من العلم اللدني الذي يستحق الحمد[٤].

وما ذكره – رحمه الله – نقله من قبل أبو حيان في قوله: قال قومٌ مرض سليمان مرضا كالإغماء، حتى صار على كرسيه جسدا، كأنه بلا روح[٥]. وقد نقل المفسرون قولا يوضِّح أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن ويقل: إن شاء الله، وأن الجسد الملقى هو المولود شقّ رجل، فقد جاء في هذا الحديث:" لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، وجاءته بشق رجل، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:" والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل

(١) انظر: البحر المحيط: ج٥/ ٢٩٥.
(٢) انظر: تفصيل القول في ذلك في: تفسير المنار:١٢ / ٢٣٠.
(٣) انظر: حصاد السنين:١٢٢ – ١٢٣، ٢٢٩ – ٢٣٠.
(٤) انظر: حصاد السنين:١٢٣.
(٥) انظر: البحر المحيط: ج٧/ ٣٨١.

الله فُرسانا أجمعون"[1]، وهذا ما أميل إليه، لاعتماد هذا الرأي على نصِّ حديث نبوي شريف.

٧ـ المقصود بقوله:" واجعلوا بيوتكم قبلة".

من التفاسير التي ارتضاها الدكتور تمام في قوله تعالى: " وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً" يونس:٨٧، أي: متقابلة، بحيث يسهُل جمعكُم عند إرادة الهرب[2]. وقد نُسِبَ هذا القول من قبلُ لسعيد بن جبير[3]، وإن كان معظم المفسرين على تأويل: أن بني إسرائيل أُمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سرا، خوفًا من فرعون وقومه[4]. وذكر العلماء هنا أنه إذا كان المعنيُّ بالبيوت هو المساجد، فالمعنى: اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لأجل الصلاة، وإذا كان المقصود من البيوت هو مطلق البيوت، فالمقصود: اجعلوا دوركم قبلة، أي صلوا في بيوتكم، أو المقصود أن تكون متقابلة[5].

٨- المقصود بـ" فمستقر ومستودع".

في قوله تعالى:" وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ" الأنعام: ٩٨، ذهب الدكتور تمام إلى أن المستقر هو ظهر الأب بالإرث من آدم

(١) صحيح البخاري: ٣٤٢٤، وصحيح مسلم: ١٦٥٤.

(٢) انظر: اجتهادات لغوية: ٣٢٢، ٣٢٣.

(٣)انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ج٧/ ٣٩٣، تحقيق مصطفى السيد وآخرين، مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ج٧/ ٣٩٢، والكشاف: ج٣/ ١٦٦.

(٥) انظر: تفسير الفخر الرازي: ١٧/ ١٥٤.

إلى ما شاء الله. ومستودع: رحم الأم[١]، وهذا المعنى قريب مما ذكره بعض المفسرين، حيث جعلوا المستقر في الأصلاب أو البطون أو القبور، وقيل المستقر في الأصلاب، والمستودع في الأرحام، أو مستقر في الأرض ظاهرا، ومستودع فيها باطنا [٢]. ولا شك أن توسيع دلالة" المستقر" و" المستودع" أولى من تضييقها.

٩- المقصود بقوله" سبع سموات طباقا".

في قوله تعالى:" الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا" الملك:٣ ذهب الدكتور تمام إلى أن المعنى خلقها متطابقة دون اختلاف، ويأتي تطابقها من أنها جميعا مكونة من نجوم وكواكب ومسافات، والدليل على ذلك قوله تعالى:" مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ" الملك: ٣[٣]. وقد ذهب الإمام القرطبي إلى أن المعنى خلقها طبقات بعضها فوق بعض[٤]. ولا شك أن هذين المعنيين متكاملان؛ فالسموات السبع بعضها فوق بعض، وهي متطابقة، أي أن التأويلين متكاملان.

١٠- المقصود بالصمد.

في قوله تعالى:" اللَّهُ الصَّمَدُ" الإخلاص: ٢، ذهب الدكتور تمام إلى أن المقصود بالصمد هو ما جاء توضيحه في الآية التي بعدها في قوله تعالى:" لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ" الإخلاص:٣، ٤[٥]. وقد أشار إلى هذا المعنى أبيّ بن كعب –

(١) انظر: اجتهادات لغوية:٣٢٣. وهذا المعنى قريب مما ذهب إليه بعض المفسرين انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، ج٥/ ٦٦، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

(٢) انظر: الدر المصون: ج٥/ ٦٦.

(٣) انظر: الفكر اللغوي الجديد:١٣٧.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم: ج٢١/ ١١٣.

(٥) انظر: الفكر اللغوي الجديد:١٣٧.

– رضي الله عنه – من أن الصمد: الذي لا يلد ولا يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا يورث[١]، بينما ذكر كثير من المفسرين أن معنى الصمد الذي يُصمَدُ إليه في الحاجات[٢]. ولا شك أن ما ذهب إليه الدكتور تمام اعتمد فيه على سياق النص، كما أنه مؤيَّدٌ بما نُقِلَ عن الصحابي الجليل.

١١- مخالفة بعض النحاة في ترجيح وجه إعرابي على وجه آخر.

أ- في قوله تعالى:"الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ" البقرة:١٢١، ذكر الدكتور تمام هنا أن المبتدأ هنا هو " الموصول"، وجملة يتلونه" حال، والإشارة بـ" أولئك" لربط الخبر بالمبتدأ المشار إليه بها، والخبر جملة" يؤمنون به"، ولا يجوز عنده أن نجعل الإشارة مبتدأ على نية الاستئناف؛ لأن في ذلك إقرارا بأن اليهود كانوا يتلون التوراة حق تلاوتها، مع أنهم بدلوا وحرفوا نصها، وحملوها فلم يحسنوا حملها، أما ما ذهب إليه فيكون المعنى أن الذين يتلون الكتاب حق تلاوته طائفة منهم دون جميعهم[٣]. وقد ذكر أبو حيان عدة أوجه في الخبر، منها أن تكون جملة" يتلونه" خبرا، ويمكن كذلك أن تكون جملة" أولئك يؤمنون به" خبرا، أو خبرا بعد خبر، أو خبرا وجملة "يتلونه" في محل نصب حال[٤]. وما ذكره الدكتور تمام وجيه من ناحية المعنى، ولكن يدخل عليه الاعتراض من ناحية عدِّ"أولئك" مجرد رابط، وليس لها موقع إعرابي، كأن تكون في محل رفع مبتدأ، وما

(١) نظر: الجامع لأحكام القرآن: ج٢٢/ ٥٥٨. وقد أورد الإمام القرطبي عدة معان، منها: الذي يصمد إليه في الحوائج، وقد رجح هذا المعنى، وأورد معه – كذلك – الباقي الدائم، والمقصود بالرغائب، السيد، المستغني عن كل أحد... انظر: ج٢٢/ ٢٥٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم: ج٢٢/ ٥٥٨، و البحر المحيط: ج٨/٥٣٠ ، والدر المصون: ج١١/ ١٥٢.

(٣) انظر: خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم: ١٥.

(٤) انظر: البحر المحيط: ج١/ ٥٣٩، ٥٤٠.

بعدها خبر لها، والجملة المكونة من المبتدأ والخبر -كما ذكر بعض النحاة - يمكن عدُّها خبرًا بعد خبر.

ب- في قوله تعالى:" اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ. مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ" آل عمران: ٢-٤، ذكر الدكتور تمام هنا أن المبتدأ لفظ الجلالة، والخبر "نزل عليك الكتاب بالحق"، وأن الجملة "لا إله إلا هو" جملة اعتراضية، وأنَّ" الحي القيوم" صفتان، وقد اعترض على جعل جملة" لا إله إلا هو" هي الخبر، وكذلك" الحي القيوم" هي الخبر، وما بعدها" نزل عليك الكتاب" على سبيل الاستئناف"[(١)]، والقرينة الدالة على ذلك قوله تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ" آل عمران:٤، كما أن المعنى الذي تريده الآية هو تقرير أن الله سبحانه هو الذي نزل الكتاب بالحق[(٢)]. وقد أشار أبو حيان إلى هذا، كما ذكر أيضا أن الخبر هو" لا إله إلا هو" وأن" نزل عليك الكتاب" خبرُ بعد خبر[(٣)]، وإن لم يذكر ترجيحا من سياق الآية كما ذكر الدكتور تمام؛ ومن ثم فإن ما تفرد به في الترجيح هو الأولى، لسياق الآيات، ولقوة المعنى المراد.

ج- في قوله تعالى:" وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ " آل عمران:١٤٠، يرى الدكتور تمام زيادة الواو هنا؛ لأن علة مداولة الأيام بين الناس إرادة الله أن يعلم الذين آمنوا ويتخذ من المؤمنين شهداء، وليمحص الذين آمنوا ويمحق الكافرين[(٤)]. أما المفسرون فقد نقل بعضهم زيادة

(١) انظر: خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم:١٣.

(٢) انظر: السابق:١٤.

(٣) انظر: البحر المحيط: ج٢/ ٣٩٢.

(٤) انظر: البيان في روائع القرآن:٢٩.

الواو[١]، ورأى كثير منهم وجودها، وأن لهذه الواو نظائر في القرآن الكريم نحو قوله تعالى:" وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ" الأنعام:٧٥، وقوله سبحانه:" وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" الأنعام: ١١٣، وعلى هذا يكون المعنى: وتلك الأيام نداولها بين الناس ليكون كيت وكيت وليعلم الله، وإنما حذف المعطوف عليه للإيذان بأن المصلحة في هذه المداولة ليست بواحدة، ليسلِّيهم عما جرى، وليعرِّفَهم أن تلك الواقعة وأن شأنهم فيها، فيه من وجوه المصالح ما لو عَرَفُوه لسرَّهم[٢].

د- في قوله تعالى:" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا. قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ" الكهف:١-٢، ذكر الدكتور تمام أن هناك حالين، هما: ولم يجعل له عوجا، وقيما، وأن الحال الأولى جاءت طويلة؛ لأن الحال الثانية أتى بعدها ما يشرحها، حيث وضحت معنى القوامة؛ ومن ثم طالت هذه الحال مع موضحها، ولم تتأثر جودة السبك[٣]. وقد اختلف النحاة في إعراب كلمة (قيما) وجملة (ولم يجعل له عوجا)، فقد جعل الزمخشري(قيما) منصوبة بفعل مضمر، ولم يجعلها حالا، والتقدير عنده: وجعله قيما[٤]، بينما ذكر ابن عطية أن(قيما) حال، وجملة(ولم يجعل له عوجا) جملة اعتراضية، كما جوَّز أن يكون منصوبا بفعل مضمر تقديره: أنزله أو جعله[٥]. وما ذكره الدكتور تمام مما تطمئن إليه النفس ويقبله العقل؛ لأن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير، كما أن تعدد

(١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين الألوسي: ج٦٩/٤، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

(٢) انظر: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي: ج١٧/٩، دار الفكر، د. ت.

(٣) انظر: خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم:٢٥.

(٤) انظر: الكشاف: ج٥٦٤/٣.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ج٣/ ٤٩٥، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

الحال مما تبيحه اللغة وترتضيه، خاصة إذا كان صاحب الحال واحدًا، وهو " الكتاب"، كما أن عدَّ" ولم يجعل له عوجا" جملة حالية أولى من جعلها جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب.

هـ- في قوله تعالى:" تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" السجدة:٢، جاء المبتدأ" تنزيل الكتاب" والخبر" من رب العالمين"، وما بينهما جملة معترضة، وليست الخبر؛ لأن المعنى سيصير نفيا لكونه سبحانه قد ارتاب في التنزيل، إذ لم يصادف تنزيل القرآن الكريم ارتيابا من الله سبحانه(١)، وقد اقتفى الدكتور تمام هنا أثر أبي حيان في ترجيحه وتعليله(٢).

١٢- عود الضمير إلى أقرب مذكور.

في قوله تعالى:" وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ" النساء:٨١، رأى الدكتور تمام أن الضمير المستتر في الفعل" تقول" يرجع إلى الطائفة المذكورة، والمعنى: أنها قالت: طاعة، وبيّتت معصية، وليس كما ذكر الإمام القرطبي:" بدَّلوا قول النبي – صلى الله عليه وسلم – فيما عهده إليهم وأمرهم به"(٣)؛ وذلك لأن الآية لم تشتمل على قولٍ قاله النبي – عليه الصلاة والسلام– وإنما اشتملت على قولهم هم: "طاعة"؛ ومن ثم فإن الضمير يعود إلى الطائفة؛ لأنها أولى، وذلك لقرب المسافة بين الضمير ومرجعه(٤). وما ذكره أستاذنا جاء

(١) انظر: خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم:١٤.

(٢) انظر: البحر المحيط: ج٧/ ١٩٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي: ج٦/ ٤٧٤، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشاركه محمد رضوان عرقسوسي، وغياث الحاج أحمد، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٦م.

(٤) انظر: خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم:١٠.

موافقا لقول ابن عباس – رضي الله عنهما– [1]، كما اعتمد فيه على قاعدة عود الضمير إلى أقرب مذكور.

١٣- رجحان كون "ما" نافية لا موصولة.

في قوله تعالى:" لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ" يس: ٣٥، تصلح "ما " أن تكون موصولة، فيكون المعنى: ومن الذي عملته أيديهم من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه، وتصلح أن تكون للنفي، فيكون المعنى: ولم تعمله أيديهم؛ لأن الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه[2]. ويرى الدكتور تمام أن الناظر في سياق نصِّ الآية، والحض على الشكر في نهايتها في قوله:" أفلا يشكرون " يجعل معنى النفي للأداة أولى؛ لأنهم يأكلون ثمرا لم تعمله أيديهم، فهلا شكروا الله على ذلك[3]. وقد جاء النفي في سياق آية أخرى في قوله تعالى:" أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ" النمل:٦٠. وقد أورد المفسرون الاحتمالين السابقين، ولم يرجحوا وجها على وجه[4]، وما ذكره الدكتور تمام هو الأولى لقوة الدليل السياقي؛ حيث اعتمد على سياق الآية نفسها، وعلى سياق آية النمل:٦٠.

(١) انظر: البحر المحيط: ج٣/ ٣١٧، وقد أورد – كذلك – الاحتمالين السابقين.

(٢) انظر : الكشاف : ج٢ / ٩٩٦ ، ٩٩٧ .

(٣) انظر: اجتهادات لغوية:١٨٦، ١٨٧ ، والفكر اللغوي الجديد:١٠٨.

(٤) انظر: الكشاف:ج٥/ ١٧٦، ١٧٧، والبحر المحيط:ج٧/ ٣٢٠. وأضاف السمين الحلبي إلى هذهين الوجهين أيضا كونها نكرة موصوفة،
أو مصدرية انظر الدر المصون:ج٩/ ٢٦٨.

١٤-تعلُّق الجار والمجرور بما يستقيم به المعنى.

في قوله تعالى:" لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" الرعد:١١، ليس هناك ما يحول دون تعلق الجار والمجرور "من أمر الله" بالفعل " يحفظونه "، ولا سيما أن الفعل أقرب إلى المجرور مما عداه من عناصر الكلام، ولكن العقل يحول دون ذلك؛ لأن أمر الله – وهو قضاؤه وقدره – لا يحفظ منه شيء، حتى المعقبات المذكورة في النص؛ ومن ثم ذهب الدكتور تمام إلى أن الجار والمجرور" من أمر الله" متعلق بصفة مقدرة للفظ "معقبات، أي كائنة من أمر الله، وعلى هذا ففي الآية تقديم وتأخير، أي: له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه(١)، وقد رُوِيَ هذا عن الفراء ومجاهد والنخعي وابن جريج(٢)، أو أن تكون " من" بمعنى " الباء " أي: بأمر الله (٣).

وما ذهب إليه الدكتور تمام أولى لاعتماده على دليل عقلي في سبيل إيضاح رأيه الذي وافق فيه من قبله، كما أنه إذا تعددت الاحتمالات في الجملة فأولى العناصر التي يتعلق بها الجار والمجرور ما استقام به المعنى أو دلَّت عليه القرينة.

١٥-الاستفهام الإنكاري في قوله:" وما أعجلك عن قومك يا موسى".

في قوله تعالى:" وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى" طه: ٨٣، تحتمل "ما " أن تكون تعجبية أو استفهامية، ويرى الدكتور تمام استنادا إلى سياق النص أنها استفهامية، وأن الغرض من الاستفهام الإنكار، ويتضح ذلك من خلال الآتي:

(١) انظر : البيان في روائع القرآن: ١٤٠،، وانظر: خواطر من تأمل لغة القرآن: ٢٧.

(٢) انظر :البحر المحيط:ج٥/٣٦٤- ٣٦٥.

(٣) انظر: التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري: ج٢/ ٦٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م.

١ – اعتذار موسي – عليه السلام – عن العجلة بقوله:" وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى" طه: ٨٤، ولولا الإنكار ما جاء الاعتذار، ولو كان الاستفهام على بابه لكفى في الإجابة عنه أن يقول:" هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِى " طه: ٨٤.

٢ – أن الإنكار إنما كان بسبب ترك موسي – عليه السلام – لقومه عرضة للفتنة، ولو بقي فيهم ما افتتنوا، ودليل ذلك قوله تعالى:" فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ" طه: ٨٥، أي بلوناهم وأضلهم السامري.

٣ – أن موسي– عليه السلام – رجع إلى قومه غضبان أسفا، وأنه أخذ برأس أخيه يجره إليه، فتكرار الحال أو تعددها في قوله تبارك وتعالى:" فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً " طه:٨٦ – فيه دليل على تعدد الأسباب، فأما الغضب فمنصبٌّ علي أخيه وقومه، وأما الأسف فلما رآه من إنكار العجلة مما سبب له مزيجا من الحزن والندم(١). ومن قبل ذهب الزمخشري وغيره إلى أن الاستفهام إنكاري(٢)، وإن لم يذكر بيانا وافيا مثل الذي ذكره الدكتور تمام، وهو الراجح من وجهة نظر الباحث لقوة الأدلة، واستناده إلى سياق نص الآية وتضافر ما قبلها وما بعدها في إيضاحه.

(١) انظر: قرينة السياق: ٣٨١ ـ ٣٨٢، والبيان في روائع القرآن: ٤٠٩ ، واجتهادات لغوية: ٢٤٣.

(٢) رجَّح الزمخشري أن يكون الاستفهام للإنكار: انظر: الكشاف، ج٤/ ١١٠، ١٠٢، وذهب النسفي إلى هذا انظر: مدارك التنزيل
وحقائق التأويل: ج٢/ ٣٧٧. ولم يشر الإمام القرطبي إلى الإنكار انظر: الجامع لأحكام القرآن: ج١٤/ ١١٥–١١٦، وكذلك الإمام
الشنقيطي في أضواء البيان: ج٤/ ٦٠٩– ٦١٣، وقد جعل أبو حيان الاستفهام على بابه انظر: البحر المحيط: ٦/ ٢٤٧، ٢٤٨

١٦- ترجيح إضافة المصدر إلى فاعله.

قد يضاف المصدر إلى فاعله أو مفعوله، ويساعدنا السياق في تحديد المراد من ذلك، ومن ذلك قوله تعالى:" لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً " النور: ٦٣، حيث يجوز في قوله تعالى:" لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ" أن يكون المصدر مضافا إلى مفعوله، بمعنى أنكم لا تنادوه باسمه، فتقولوا: يا محمد، ولا بكنيته فتقولوا: يا أبا القاسم، ولا ترفعوا أصواتكم عنده كما يفعل بعضكم مع بعض، بل نادوه وخاطبوه بالتوقير – مع خفض الصوت والتواضع والتعظيم –: يا رسول الله، يا نبي الله، وعلى هذا القول جماعة كثيرة(١). ويشهد لهذا القول آيات أخرى، نحو قوله تعالى: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُون" الحجرات:٢، وقوله تعالى" إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُون. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ " الحجرات: ٤، ٥.

أو يكون من إضافة المصدر إلى فاعله، فيكون حينئذ لها له معنيان: الأول: ما ذكره ابن كثير، وهو: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا(٢). وقد رُدَّ على هذا الوجه الأخير بأن

---

(١) انظر: الدر المصون: ج ٨/ ٤٤٦، وأضواء البيان:ج٦/٢٧٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ج: ١٠/ ٢٨٠ ، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرين، مؤسسة قرطبة، مكتبة أولاد الشيخ، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م ، وانظر:أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي: ج٦/ ٢٨٠، إشراف بكر عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، مطبوعات المجمع الفقه الإسلامي، جدة، دون تاريخ.

ظاهر القرآن الكريم يأباه؛ لأن قوله تعالى:" كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا" يدلُّ على خلافه، ولو أراد دعاء بعضهم على بعض لقال: لا تجعلوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض[1]. والمعنى الثاني ما ذكره الزمخشري بقوله: إذا احتاج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى اجتماعكم عنده لأمرٍ فدعاكم، فلا تتفرقوا عنه إلا بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضا، بل يجب عليكم المبادرة لأمره[2].

وقد رجَّح الدكتور تمام ما ذهب إليه الزمخشري وما أشار إليه أبو حيان من كون المصدر مضافا إلى فاعله، اعتمادا على سياق النص الآية الكريمة نفسها في قوله تعالى:" قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" النور: ٦٣، ويؤكد ذلك ما جاء في آية أخرى في قوله تعالى:" وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون" التوبة: ١٢٧؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – هو الذي يدعو الناس إلى سماع ما أنزل الله، ولكن الناس ينظر بعضهم إلى بعض، ثم يتسللون لواذا[3]، أي أن هذا القول موافق لمساق الآية ونظمها[4]. ولا شك أن ما ذهب إليه من رأي له وجاهته وقوته؛ لأن سياق نص الآية نفسها أقوى من تفسيرها من سياق آيات أخرى، فما كان في السياق نفسه أولى مما هو خارج عنه.

(١) انظر:أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ج٦/ ٢٨٠ .

(٢) انظر: الكشاف: ج ٣٢٨/٤ ، والبحر المحيط:ج٤٣٦/٦.

(٣) انظر : الخلاصة النحوية : ٢٣ . وانظر: اجتهادات لغوية: ٢٠٣، ٢٠٤، وانظر: الإفادة: ٣٣٩.

(٤) انظر: البحر المحيط:ج٤٣٦/٦.

١٧- ترجيح أن الأيمن من اليمن وأنه صفة لجانب الطور.

في قوله تعالى:" وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً " مريم:٥٢ احتمال أن يكون لفظ" الأيمن" صفة للجانب، وأن يكون صفة للطور[١]، والعلامة الإعرابية لا تستطيع التفرقة بينهما؛ لأنها واحدة في الحالتين هي الكسرة، كما أن فيها احتمالا آخر أن يكون "الأيمن" من اليمين الذي يقابل الشمال، أو يكون من اليُمْن الذي يقابل الشؤم. والذي يدل علي أنه صفة للجانب، أن النعت يكون للمضاف دون المضاف إليه، إلا في حالات خاصة ليس هذا من بينها، وعلي هذا يكون المعنى: أن الله – عز وجل – ناداه في الجانب الأيمن من الطور[٢]، وقوله تعالى في سياق آية أخري ناعتًا الجانب بالأيمن:" وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى"طه:٨٠، ويساعد على هذا – أيضا – سياق نص آية أخرى هي قوله تعالى:" فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ " القصص:٣٠، والذي يدل على أنه من " اليمن " قوله في نفس الآية:" فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ "، أي: أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة التي كانت في البقعة المباركة، أي الميمونة؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ[٣].

ونلحظ هنا أنَّ ما ذكره – وإن وافق فيه أبا حيان[٤]– قد تفرد في توضيحه وبيانه؛ حيث اعتمد على دليل نحوي، من كون النعت يكون للمضاف دون

---

(١) انظر : الكشاف : ج ٢٧/٤.

(٢) انظر : البحر المحيط : ٦ / ١٨٨.

(٣) انظر :البيان في روائع القرآن : ٤٢٢، ٤٢٣ ، وانظر: الكشاف: ج ٤٩٩/٤.

(٤) ذكر أبو حيان أن يكون" الأيمن" صفة للجانب، وأن يكون على يمين موسى، أو أن يكون من اليمن وأن يكون صفة للجانب، وهو الراجح عنده، وأن هناك احتمالا آخر وهو أن يكون صفة للطور؛ فيكون معناه الأسعد المبارك. انظر:البحر المحيط : ٦ / ١٨٨.

المضاف إليه في الآية الكريمة، كما اعتمد على وصف الجانب بالأيمن من خلال ظهور العلامة الإعرابية" الفتحة" على لفظ" الأيمن"، دون وجود "الكسرة"، كما اعتمد على سياق نص آية أخرى في سورة القصص:٣٠. وهكذا نستطيع أن نعرف المراد من الآية ونعرف المقصود منها، ونرجح بين الآراء من خلال سياق نص الآية نفسها، إن أمكن ذلك، وإلا فلنلجأ إلى آيات أخرى واردة في السياق نفسه وتعالج – في الغالب – نفس الموضوع، لنعرف المقصود من الآية الكريمة.

رابعا:الأدلة التي اعتمد عليها الدكتور تمام حسان في ترجيح آرائه.

اعتمد الدكتور تمام حسان على أدلة قوية في تفرده برأيه، من أهمها الدليل السياقي، والدليل اللغوي، والدليل العقلي. أما الدليل السياقي: فقد رأى أن هناك سياقين يتحكمان في توجيه دلالة النصوص، ولا يشترط أن يجتمعا في كل نص يُراد توجيه دلالته، وهما "سياق النص" الذي تتوالى فيه العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك، و"سياق الموقف" الذي يضم جميع الظروف والوقائع غير اللغوية التي تحيط بالنص عند شرحه من أجل توجيه معناه، وتتوالي فيه الأحداث التي تصاحب الأداء اللغوي، وتكون ذات علاقة بالاتصال(١).

وقد استند إلى هذا الدليل في معظم الآراء التي تفرَّد بها؛ فقد اختار وجها إعرابيا ورجَّحه على وجه آخر، كما ظهر ذلك من خلال سورة السجدة:٢، وكما في سورة الكهف:٥٨، من عده الخبر فيها" لا يؤاخذهم"، كما ترجَّح من خلال هذا الدليل كون " ما" نافية لا موصولة في سورة" يس":٣٥، وأن الغرض من سورة طه: ٨٣ هو الاستفهام الإنكاري. كما اعتمد عليه في مسائل تفرد بها عن باقي المفسرين، كما في عدِّه" هؤلاء " أنها تفيد الانتقاص، ونحو الذهاب إلى نبوة مؤمن آل فرعون، وتفرده في تتبع لفظي الأولى والآخرة في النص القرآني.

(١) انظر: قرينة السياق، للدكتور: تمام حسان: ٣٧٥.

أما الدليل اللغوي: فهو دليل يعتمد فيه صاحبه على قرينة من النحو أو الصرف، وقد استند إليه الدكتور تمام في بعض ما تفرد به، ومن ذلك عود الضمير إلى أقرب مذكور، كما في قوله تعالى:" وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ" النساء:٨١، حيث اعتمد على هذه القاعدة في إرجاع الضمير المستتر في الفعل" تقول" إلى الطائفة المذكورة، وليس إلى قول للنبي – صلى الله عليه وسلم – قاله لهم؛ وذلك لأن الآية لم تشتمل على قولٍ له، وإنما اشتملت على قولهم هم: "طاعة". وكما في قوله تعالى:" وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ " الأعراف: ٢٦، حيث اعتمد على قرينة صرفية من جعله" لباس" مصدرا للفعل" لابس".

أما الدليل العقلي: فهو ما اعتمد فيه صاحبه على مرجِّح من العقل. وقد اعتمد أستاذنا على هذا الدليل في بعض ما اختاره من آراء وتفرد به، ومن ذلك ما رجحه في قوله تعالى: "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ" البقرة:١٢١، حيث لم يجوز أن تكون الإشارة هنا مبتدأ على نية الاستئناف؛ لأن في ذلك إقرارا بأن اليهود كانوا يتلون التوراة حق تلاوتها، مع أنهم بدلوا وحرفوا نصها، وحملوها فلم يحسنوا حملها، أما ما ذهب إليه فيكون المعنى أن الذين يتلون الكتاب حق تلاوته طائفة منهم دون جميعهم(١). كما أنه اعتمد على الدليل العقلي في ترجيح كون" لباس" مصدرا في قوله تعالى:" وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ " الأعراف: ٢٦، لأن التقوى لا لباس لها، ولا يُشترط للتقيّ أن يلبس لباسا بعينه، كما أن هناك مفارقة معجمية بين" لباس" والتقوى"، ومن ثم رأى أن " لباس " مصدر حقيقي للفعل" لابس"، ومعناه مزاولة التقوى، وهذا موافق لسياق نص آيات أخرى استعمل فيها" لباس" بمعنى المزاولة والمخالطة، ومن ذلك قوله تعالى:" هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ "

(١) انظر: خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم: ١٥.

البقرة: ١٨٧، أي مخالطات لكم، وقوله تعالى:" وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسا" النبأ: ١٠، أي وقتا يجتمع فيه بعضكم مع بعض، وقوله تعالى:" فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ" النحل: ١١٢، أي معاناة الجوع والخوف، فاللباس معايشة واجتماع ومعاناة(١). وقد يرد " لباس" بمعنى الملابس الحقيقية وذلك وارد في قوله تعالى:" يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً " الأعراف:٢٦، وقوله تعالى:" وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ" الحج:٢٣.

كما أنه اعتمد عليه – كذلك –في قوله تعالى:" لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" الرعد:١١، حيث انتهي إلى أن الجار والمجرور" من أمر الله" متعلق بصفة مقدرة للفظ "معقبات، أي كائنة من أمر الله، وعلى هذا ففي الآية تقديم وتأخير، أي: له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، مع أنه ليس هناك ما يحول دون تعلق الجار والمجرور "من أمر الله" بالفعل " يحفظونه "، ولا سيما أن الفعل أقرب إلى المجرور مما عداه من عناصر الكلام، ولكن العقل يحول دون ذلك؛ لأن أمر الله – وهو قضاؤه وقدره – لا يحفظ منه شيء، حتى المعقبات المذكورة في النص، وهنا يتدخل العقل وفق الشرع من أجل استنباط هذا المعنى المقصود.

(١) انظر: قرينة السياق :٣٧٨ ، ٣٧٩ ، وحصاد السنين:٩٢، ٩٣.

نتائج البحث:

استطاع البحث بحمد الله وتوفيقه أن يصل إلى عدد من النتائج، يمكن لنا أن نركزها من خلال النقاط الآتية:

[١] يعد ما تفرد به الدكتور تمام حسان نوعا من التفسير بالرأي المحمود الذي يقوم على الفهم العميق لمعاني ألفاظ القرآن الكريم.

[٢] تفرَّد – رحمه الله – بالنص على نبوة" مؤمن آل فرعون"، وقد أخذ البحث – من خلال أدلة ساقها – برأي المفسرين الذاهبين إلى أنَّ المقصود بالرجل الذي جاء من أقصى المدينة في سورة" يس" إنما هو حبيب النجار، وأنه ليس رسولا من الله، كما أن " مؤمن آل فرعون" ليس كذلك.

[٣] كما تفرد – اعتمادا على سياق النص – في بيان المقصود بالأولى والآخرة معا في النص القرآني وذلك من خلال سور: النازعات:٢٥، والليل:١٣، والضحى:٤، والقصص:٧٠، والإسراء:٧٢، وقد أخذ البحث ببعض هذه المواضع، وتحفظ على بعض منها.

[٤] ذهب– رحمه الله– إلى أن لفظ" هؤلاء" في القرآن الكريم يدل على العزوف عن ذكر المشار إليهم لعدم الرضا عنهم، وأنها تفيد الانتقاص، وبعض هذه الشواهد التي ذُكِرت لا تدلُّ على هذا، ومن ذلك ما ورد في سور: البقرة:٣١، والنساء: ١٤٣، وهود:٧٨، والحجر:٦٨، ٧١، والنحل: ٨٩.

[٥] وسَّع – رحمه الله – المقصود بأيام الله الواردة في النص القرآني، ورأى أن الكفار والمنافقين لا يؤمنون بها ولا بما ورد في القرآن الكريم من الإشارة إليها؛ وأن هذه المعاني تقريبا تدور حول يوم القيامة أو مقدمات ظهوره، وذهب البحث إلى أن لفظ" يوم" الوارد في سورة التوبة:٣، ٣٦، وكذلك

الأنفال:٤١، لا تُرجَى عند الكفار أو المنافقين؛ لأنها تتعلق بحدث مضى وانتهى، أي أن سياق هذه الآيات لا يندرج تحت التذكير الموجَّه لهؤلاء.

[٦] التفرد ببعض الآراء النحوية التي خالف فيها كل النحاة، ومن ذلك القول بنقل " هل" إلى معنى التعجب، وإعطاء مصطلح جديد لواو زائدة تسمى واو البشرى، كما في سور: هود:٧٤، ويوسف:١٥، والصافات:١٠٣- ١٠٧، والزمر:٧٣، أو مخالفة بعض النحاة في ترجيح وجه إعرابي على وجه آخر، كما في سورة: البقرة:١٢١، وآل عمران:٢-٤، والكهف:١-٢، ٥٧، ٥٨، والسجدة:٢.

[٧] التفرد ببعض الآراء التي خالف فيها المفسرين، ومن ذلك القول بأن لباس التقوى معناه مزاولة التقوى، وأن شاهد يوسف ليس سوى العزيز نفسه، وأن يعقوب نهي أبناءه من الدخول من أبواب متفرقة؛ لئلا يُحاط بهم أو ببعضهم.

[٨] على الرغم من موافقة أستاذنا لبعض المفسرين في آرائهم، إلا أنه تفرَّد في بيانها وتوضيحها والتعليل لها، ومن ذلك: دحضه لفرية الغرانيق اعتمادًا على سياق النص القرآني، والتفرد في بيان السبع المثاني، وتوضيح المقصود بدابة الأرض، كما تفرد في بعض المسائل، نحو: بيان أن الاستفهام إنكاري في سورة طه:٨٣، وأن الأيمن الوارد في سورة مريم:٥٢، من اليُمن، وأنه صفة لجانب الطور.

[٩] اعتمد – رحمه الله – في تفرده برأيه على أدلة قوية استند إليها، من أهمها الدليل السياقي، والدليل اللغوي، والدليل العقلي.

[١٠] يمكن استنباط بعض قواعد التوجيه المهمة الواردة خلال هذا البحث:

أ- السياق هو القرينة الكبرى في الترجيح.

ب- توسيع الدلالة أولى من تضييقها.

ج- ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير.

د- عود الضمير إلى أقرب مذكور.

هـ- إذا تعددت الاحتمالات في الجملة فأولى العناصر التي يتعلق بها الجار والمجرور ما استقام به المعنى أو دلَّت عليه القرينة، وجاء ذلك في سورة الرعد:١١.

و- ما كان في سياق آية أولى في الترجيح مما هو خارج عن سياقها، وذكر ذلك في سورة النور:٦٣.

ز- مادام الأمر يمكن حمله على الحقيقة، فلا داعي لحمله على المجاز، وظهر ذلك في سورة الأعراف:٢٦.

ح- الأصل في الألفاظ أن تدلَّ على مدلولاتها بالمعنى الأصلي، وألا يصرفها عن هذا المعنى الحقيقي إلا أن توجد قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى، وهذه القرينة مظنتها بيئة الكلمة في النص، وليست في بيت شعري واحد، وجاء ذلك ردا على أن " تمنى" بمعنى " تلا" في دحض أكذوبة الغرانيق.

ط- ما جاء في سياق آية قد يساعدنا في تقدير المحذوف في آية أخرى، فقد جاء الفعل "اذكر" في سورة الأحقاف:٢١، وص:١٧، فساعدنا ذلك في تقدير فعل محذوف تقديره" اذكر" في سورة البقرة:٣٠.

ي- القراءات القرآنية تتعاضد ولا تتعارض، وظهر ذلك في سورة النمل:٨٢.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. اجتهادات لغوية، للدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

٢. أسباب النزول، للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، دراسة وتحقيق الدكتور: السيد الجميلي، الناشر دار الكتاب العربي، ط ٦، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

٣. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، إشراف بكر عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، مطبوعات المجمع الفقه الإسلامي، جدة، دون تاريخ.

٤. الأولى والآخرة في القرآن الكريم: دراسة نصية، للدكتور علاء دسوقي أحمد علي، مجلة كلية الآداب، جامعة بورسعيد، العدد٨، ٢٠١٦م.

٥. البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ -١٩٩٣ م.

٦. البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د تمام حسان، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م.

٧. التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٨. التفسير بالرأي والشبهات المثارة حوله، د. فهد بن مبارك الوهبي، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة الخامسة، العدد ٩، ١٤٣٧ هـ.

٩. التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة بنت عبد الرحمن مكتبة الدراسات الأدبية"٢٥"، الطبعة الخامسة، دار المعارف.

١٠. تفسير الشعراوي، للإمام محمد متولي الشعراوي، ط دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ١٩٩١م.

١١. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق مصطفى السيد وآخرين، مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

١٢. تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٣. التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ٢٠٠٠م.

١٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.٢٠٠١م.

١٥. الجامع الصحيح، للإمام البخاري، دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٨ هـ.

١٦. الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشاركه محمد رضوان عرقسوسي، وغياث الحاج أحمد، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٦م.

١٧. حصاد السنين من حقول العربية، للدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م

١٨.الخلاصة النحوية، للدكتور تمام حسان، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م

١٩.خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم، للدكتور تمام حسان، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ -٢٠٠٦ م.

٢٠.الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، دون تاريخ.

٢١.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين الألوسي، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت

٢٢.صحيح مسلم، تحقيق وتعليق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي بمصر،١٩٥٥م.

٢٣.الفكر اللغوي الجديد، للدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١١م

٢٤.قرينة السياق، للدكتور، للدكتور تمام حسان، بحث قدم في الكتاب التذكاري للاحتفال بالعيد المئوي لكلية دار العلوم، مطبعة عبير، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٥.الكتاب، لسيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨م.

٢٦.لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، ج:٥/١٨٠، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩ هـ -١٩٧٩ م.

٢٧. لباب النقول في أسباب النزول ، للسيوطي، قدم له وراجعه الشيخ حسن تميم ، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثامنة ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ م .

٢٨.لمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب، العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢ هـ . ٢٠٠١م.

٢٩.مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات النسفي، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.

٣٠.معجم ألفاظ القرآن الكريم، من إصدار مجمع اللغة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ هـ . ١٩٨٨م.

٣١.معجم القراءات، للدكتور عبد اللطيف الخطيب، دمشق، دار سعد الدين، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

٣٢.مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٣.مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن، للدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م

٣٤.ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، للإمام أحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق الدكتور سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.